لأنني لاجئة

لأنني لاجئة

لأنني لاجئة

مؤمنة محمود

رواية

تدقيق لغوي

أ. عبد الله راتب النفاخ

لأنني لاجئة

الإهداء:

إلى جوزاءيتي الحبيبة ومشاكستي على الدوام

إلى نوارة بيتنا وشعلتنا أهديها ما خطت يدي.

لأنني لاجئة

كلمة شكر

- الشكر لكلّ عربي شريف ساعد لاجئاً سورياً ولو بابتسامة رسمها على محياه.
- الشكر لدولة مصر ولشعبها الشقيق لوقوفه إلى جانب الشعب السوري في محنته ولاستضافته لأكثر من مائتي ألف لاجئ سوري، والذي كان بمثابة الأخ الأكبر لكل سوريّ على أراضيه دون أن يسأل عن نسبه أو عرقه
- الشكر لمن ساعدني في إتمام روايتي الصغيرة لتكون أقرب إلى الحقيقة المؤلمة

- وأخـصّ بالشـكر أصـدقائي الـذين مـا بخلـوا علــي بمعلومات عن رحلتهم المريرة إلى أرض أوروبّا

وهم: _منى محمود

_ رولا كمال

_ عامر عبد الكريم

لأنني لاجئة

فرشت فوق ثراك الطاهر الهدبا فيا دمشق... لماذا نبدأ العتبا؟

حبيبتي أنت فاستلقي كأغنية على ذراعي، ولا تستوضحي السببا

يا شام، إن جراحي لا ضفاف لها فامسحي عن جبيني الحزن والتعبا

وأرجعيني إلى أسوار مدرستي وأرجعي الحبر والطبشور والكتبا

تلك الزواريب كم كنز طمرت بها وكم تركت عليها ذكريات صبّا

وكم رسمت على جدرانها صوراً وكم كسرت على جدرانها لعبا

هذي البساتين كانت بين أمتعت لما ارتحلت عن الفيحاء مغتربا

فلا قميص من القمصان ألبسه إلا وجدت على خيطانه عنبا

لأنني لاجئة

دمشق، يا كنز أحلامي ومروحتي أشـــكو العروبـــة

أم أشـــــــــكو لـــــــــك العربـــــــا

نزار قباني

لأنني لاجئة

لأنني لاجئة

أعرف أنني مهما ركبت من طائرات وقطعت من محيطات ورقصت بين القارات، ما زلت اتسكّع في الزقاق الشامي الذي ولدت فيه جيئة وذهاباً منذ طفولتي وحتّى أموت...

ومهما اغتسلت في مياه السين والمسيسبي والراين، لا تزال مياه بردى تبللني وحدها ولا تجفّ عني.

أعرف أنني أينما كنت، ما زلت في بيتي الدمشقي تحت ظل عينيك يا حبيبي الوحيد، يا زين الشباب، يا قاسيون الأبد.

غادة السمّان

لأنني لاجئة

لأنني لاجئة

خلعت على ملاعبها شبابي

وأحلامي على خضر الروابي

ولي في غوطتيك هوى قديم

تـغلغل فــي أمانيَّ العذاب

أتنكرني دمشق وكان عهدي

بــها ألّا تلــوّح بــالسراب

أتنكرني وفـي قلبـي سنـاهـا

وأعراف العروبة في إهابي

عبد الكريم الكرمي

لأنني لاجئة

لأنني لاجئة

ماذا أكتب عنك يا طفلة تحتمي بأحضان
الشتاء؟
ماذا أكتب عنك يا طفلة تختبئ خلف الأشجار؟
ماذا أكتب عنك يا طفلة من نور الشمس خلقت؟
ماذا أكتب؟ وكيف أكتب؟

أأكتب اسمك على شواطئ البحار؟
أأكتب اسمك على ضفاف الأنهار؟
أأكتب اسمك في الغابات والوديان؟
أأكتب اسمك في الليل والنهار؟

يا طفلة سرقوا منها أحلام الطفولة
قصوا ضفائرها في ليلة العيد

لأنني لاجئة

مــاذا أقــول لهــا ودمعهــا مســكوب علــى الخــدين ؟
ماذا أقول لها وهي تبحث عن دمية تحت الدمار؟

رســمتك بخيــوط الشــمس لتــدفئ روحــك الحزينــة
رســـمتك بخيـــوط القمـــر لتنيـــر دروبـــك المظلمـــة
رســـمتك بأغصـــان الـــورد لتســـتحمي بعبيرهـــا
رسمتك في السماء نجمة لا تخمد

لمحـــت عينـــاي دموعـــك فـــي الليـــل الطويـــل
فقلـــــت لـــــي: ترابـــــي عشـــــق الـــــدم الكثيـــــف
ســـامحيني... فـــنحن مـــن ســـبب الـــدموع فـــي عينيـــك
سأمسح تلك الدموع بحب جديد

نظــرت إليــك فــي الشــتاء تبكــين بــدمع كثيــف
حاولـــــت حمايتـــــك مـــــن قطـــــرات المطـــــر

ولكنــــك قلــــت: أنـــــا والمطـــــر أصـــــدقاء

احمني ممن سكبوا دماء الأطفال على أرضي

نظـــــرت إليــــك فــــي ليلـــــة العيـــــد

تبتســــــمين رغـــــم جناحـــــك المكســــــور

تــــذرفين الــــدمع وتلبســــين ثــــوب الحــــداد

والموت يلهو بأطفالك الصغار

مــن سـيحميك يــا وطنــاً... أنــت والمــوت أصـدقاء

يـــــا وطنـــــا عشـــــقناه منـــــذ الأزل

يـــــا وطنـــــا بكينـــــا علـــــى ترابـــــه الـــــدافئ

ســــــوريتي يــــــا مـــن تعـــــانقين الـــــشمس...

سامحينا

مؤمنة محمود

لأنني لاجئة

لأنني لاجئة

نظرتْ إليه نظرة الوداع الأخيرة، ابتسمت له في خجلٍ وأعطته ثلاث وردات. وردة للحب،ووردة للصداقة وردة للوطن طلبت منه المحافظة على ورداتها الثلاث وحمايتها من كل سوء. رحلت إلى ما وراء الجبال. أخذ الوردات الثلاث وزرعهم في حديقة جميلة، بدأ بسقايتهم صباحاً ومساءاً.

رحلت الأيام بسرعة وتاهت في قلب الذكريات، وأتت أيام أخرى سوداء كغمامة في قلب السماء رافضة الابتعاد. استيقظ فيها ليرى وردتين فقط وردة الحب، ووردة الصداقة، لم يرَ الوردة الأخيرة. من سرق منه وردة الوطن؟

لأنني لاجئة

بحث عنها في كل مكان... سأل عنها كل إنسان. ماذا سيقول لتلك التي طلبت منه حمايتها؟ لم يفِ بوعد قطعه لها، سُرقت منه ولم يستطع حمايتها أو الدفاع عنها. سافرت هذه الأيام إلى حيث المجهول وجاءت أيام مليئة بأحزان الشتاء القارص.

جاءت إليه مسرعة فرحة بقدومها إلى موطنها وإلى ورداتها الثلاث. ركضت إليه... احتضنته وسارعت إلى ورداتها. لكنها لم تجد الوردة الأخيرة. تناثرت دموعها كقطرات شلال عاصف.

من سلب الوردة؟ ولماذا؟

بدأت بالبحث عنها في كل شارع وفي كل بستان وفي كل غابة، إلى أن وجدتها بعد سنوات من البحث عنها، وجدتها مهملة على قارعة طريق. جريحة

ومصــــفرّة الأوراق، احتضـــــنتها ودموعهــــا شــــاهدة علــــى شـوقها لهـا ووعـدتها بـأن لـن تفـرّط فيهـا مطلقـاً. فهـي أغلى من تلك الوردتين ومن ورود الأرض كلّها.

*   *   *   *   *

لأنني لاجئة

لأنني لاجئة

_ لأنني لاجئ... كان يجب عليّ العمل أربع وعشرون ساعة براتب ضئيل، بالكاد يكفي إيجار منزلٍ صغير في الضواحي. الراحة ممنوعة والإجازة ممنوعة أيضاً حتى وإن كان هناك أمرُ طارئ فلا يجوز التوقف عن العمل.

_لأنني لاجئة... اغتصبوني عدّة مرّات دون أن تأخذهم الرحمة والرأفة فيّ وتركوني على قارعة الطريق لذئاب بشريّة أخرى، ولا يحقّ لي المطالبة بجزء صغير من إنسانيتي المغتصبة.

_ لأنني لاجئ... كان جاري يعشق إذلالي بكلام فاحشٍ بذيء، أكتفي بالصمت لا يعجبه ذلك فيرمي عليّ فضلات الطعام من نافذته كلّما رآني قادماً إلى

غرفتي الصغيرة فألتزم الصمت لأن حقّي مسلوب وممنوع أن أطالب به.

_ لأنني لاجئة... أقف في الطابور لأحصل على إقامة تخولني البقاء في هذا البلد لمدّة لا تتجاوز الثلاثة أشهر ومع أنني حاملٌ في شهري التاسع لا يحق لي الجلوس على الأرض، أظلّ واقفة لساعات دون أن يرأف ذاك الشرطي ذو اللباس العسكري لحالي.

_ لأنني لاجئ... أقف في الطابور لساعات كي أحصل على كرتونة صغيرة فيها بعض المواد الغذائية قد اختُلس نصفها، أتحمل الإهانة من بعض الموظفين والشتائم من البعض الآخر لقاء هذه الغنيمة.

لأنني لاجئة

_لأنـــي لاجئـــة... اســـتأجرت غرفـــة صـــغيرة مـــن الطـوب ذات الفجـوات الصـغيرة. سـقفها مـن الألـواح الحديديـــة وبـــدون منـــافع مجهّـــزة، ولا أرضـــيّة تصـــلح للجلـوس عليهـا، وكـان مقابـل ذلـك مبلغـاً كبيـراً مـن المال.

_ لأننـــي لاجـــئ... أتحمـــل إهانـــات زميلـــي فـــي المدرســـة بحقّـــي وبحـــق بلـــدي... فبســـببنا أصـــبح والـــده عـاطلاً عـن العمـل، وبسـببنا ماتـت جدتـه لأنهـا لـم تجـد مكانـــاً لهـــا فـــي المشـــفى القريـــب مـــن بيتـــه. وبســـببنا أصــبحت بلــده محطّــة للاجئــين. أكتفــي بالصــمت... فــلا يحقّ لي الاعتراض لأنني أنا المذنب فيما يحصل.

_لأنـــي لاجئـــة... منعـوني مـن دخـول ذاك المطعـم فهـو محـرّم علـى اللاجئـين... منعـوا ابنتـي مـن ارتيـاد

لأنني لاجئة

المدرسة القريبة من بيتنا فهي ليست لنا ولن تكون كذلك ... منعونا من التجوال ليلاً من الساعة السادسة مساءً وحتى السابعة صباحاً.

_ لأنني لاجئة... لم ألد طفلتي في مستشفى وإنّما ولدتها على بابه، فلا يحقّ لي امتلاك سرير صغير في مشفى حتّى وإن كان المشفى حكومياً.

_ لأننا لاجئون... قامت المسيرات ضدّنا للمطالبة بطردنا إلى لهيب حربٍ مازالت نارها قائمة... أو لرمينا في قاع بحرٍ تأكلنا حيواناته الشرسة... وربّما رمينا في صحراء شاسعة فذاك أهون عليهم بكثير من لقاء لاجئ ولو واحد فقط جالس على كرسي في حديقة عامة... حينها سيصرخ ابن البلد بوجهه ويتّهمه بسرقة هواء وطنه... وقد يأخذ منه

نقوداً لقاء استمتاعه بالشمس وجلوسه على المقعد الخشبي المهترئ.

هذا ما حدث فعلاً في بعض الدول العربية، لهذا هرب الآلاف إلى قارة أوربا عبر بحرٍ التهم نصفهم وترك النصف الآخر يضيع في غابات موحشة ليصل القليل منهم فقط إلى تلك القارة.

* * * *

لأنني لاجئة

_ شبّت الحرب في منتصف شهر أذار "مارس" من عام ٢٠١١ وبدلاً من مجيء الربيع تلك السنة حاملاً معه الأمل لمستقبلٍ قادم. جاءت الحرب ومعها مختلف الأسلحة التي لم نسمع بها من قبل ولم نحلم بها حتّى.

انقسم الشعب حينها إلى أحزابٍ عدة... منهم الصامدين الرافضين الخروج من وطن الياسمين، ومنهم المهاجرين الذين هجروا بلدهم الصغير لكنهم وجدوا مساحة آمنة لهم في وطنهم الكبير، ومنهم اللاجئين الذين هربوا إلى دولٍ عربية خائفين على أنفسهم من نار حربٍ لن ترأف بهم، ومنهم من هرب

لأنني لاجئة

إلــى البعيــد حيــث وجــدوا الأمــان ولــم يجــدوا الراحــة، ومـنهم مـن رحـل إلـى البعيـد البعيـد حيـث لا رجـوع بتاتـاً وتركوا أرواحاً أخرى تبكيهم وترثيهم.

كـانوا مسـتقبل البلـد وأملـه، وحـين حلّـت الحـرب فـي وطـنهم ضـاع مسـتقبلهم ودُفـن أملهـم، صـار كـلّ واحـد مــنهم فــي وطــنٍ لا يخصّــه ولــم يــتمنَّ يومــاً الــذهاب إليــه.... لا لــم تكــن أوطانــاً فــالوطن هــو الأم التــي تحتضـن طفلهـا حينمـا يبلـل ثيابـه... كانـت بـلاداً غريبـةً عـنهم وعاشـوا فيهـا كمـا الغربـاء، تلـك الـبلاد احتضـنت أجسـادهم فقـط، فيمـا بقيـت أرواحهـم تطـوف حـول حـدود الـوطن، تستنشـق ياسـمينه وتعـود محمّلـة بكـل الـذكريات التي عاشتها في الوطن.

لأنني لاجئة

بين أزقّتها عاشت تلك الأرواح تتذكّر ما خطّ على الجدران من رسائل حبّ قصيرة لم تكلل بالنجاح. ولكن الأزقّة باتت خراباً وضاعت رسائل الحبّ الكثيرة، كما ضاعت أصحابها وتاهت في حدود الوطن وخارجه.

أفئدتهم هي من تعيش في الوطن فقط وتأنّ له وترثيه وما زال ذاك الوطن في تلك الأفئدة رافضاً الرحيل عنها.

_ قبل أن تندلع نار الحرب اللعينة كان الأطفال يحملون حقائب مدرستهم متوجّهين إلى مدارسهم القريبة، ملوّحين لوالديهم بأياديهم الصغيرة مسرورين فرحين، واليوم وقد سجدت المدرسة سجدة نهائية لا وقوف بعدها، حملوا الحقائب ذاتها ولكنّ

فيها بقايا وطنهم ورحلة غربة بدأت ولم تنته بعد، حملوا تلك الحقائب على ظهورهم وودعوا أصدقاء لهم نستهم الحرب ولم تأخذهم إلى عالمٍ آخر. ودّعوهم بدموعٍ رقراقة، وتمنّياتٍ بالعودة إلى بعد أن تخمد نار الحرب.

_ قبل أن تبدأ الحرب كانت العبرات تنسكب فقط على حبيبٍ خان، أو على من فارق الأهل والخلّان بسبب سفره للدراسة. على أخت تزوّجت وذهبت إلى حي أخر ، أو على أخٍ سافر بعيداً وكتب في آخر رسالة له بأنّه سيعود، ولكنّ الغربة جرفته بعيداً فنسي العودة ونسي مفتاح البيت المعلّق إلى الآن في رقبته. ولكنّ الحرب غيّرت مجرى الأحداث فبدأت النسوة النحيب على الشهداء ، كلّ يوم شهيد وكل

لأنني لاجئة

يـومٍ دمـوع تنسكب دون توقّـف، كـلّ يـومٍ يرحـل حبيـب علـى قدميـه ليعـود بعـد سـاعة محمّـلاً علـى الأكتـاف... بدمائـه الزكيـة تشـهد مـن يكـون وكيـف كـان. تزغـرد النسـوة... ينثـرن الياسـمين والأرز علـى جثمانـه، وتقـف تلـك الدمعـة حـائرة علـى وجنتـي والدتـه تكـذّب ادعائهـا بـالقوة، فيمـا حبيبتـه تركـع علـى الأرض وتبكيـه بصـمت يشـقّ الأنفـاس حاقـدة علـى تلـك الرصاصـة الآثمة.

كـانوا يحلمـون... يتمنّـون... ينشـدون... يغنّـون... ويعزفـون... ولكـن الحـرب هـي مـن بـاغتتهم لينتهـي الحلـم علـى أعتـاب الحـزن والألـم، ليتمنـوا عـودة زمـانٍ جميـل انتهـى... لينسـوا النشـيد والغنـاء وحتـى العـزف أيضـاً... الآن يتمنّـوا رهـن عمـرهم بالكامـل لقـاء

عـودة سـاعة مـن ذاك الماضـي الجميـل، ولكـن الحـرب القاسـية لـن تعيـد مـا فـات كمـا أن السـاعة التـي تسـير إلى الأمام لن تعود إلى الخلف.

_ كانـت الـورود تسـقى لتكبـر فتقطـف وردة لحبيبـة صـغيرة أو لحبيـب جميـل. ينبـت الياسـمين ليُصـنع مـن وروده عقـوداً تـزيّن رقبـة صـبيّة فـي العشـرين مـن عمرهـا، ينبـت الياسـمين ليكتـب الشـعراء قصـائد لا عـدد لهـا فـي حـبّ دمشـق وياسـمينه الفـوّاح؛ ولكـن الحـرب قتلـت أرواح تلـك الـورود وصـارت تُسـقى لتـزيّن قبـر شـهيد أو لتنتشـر علـى موكـبٍ قـد ضـمّ العشـرين شـهيداً. صـارت حـين تكبـر ياسـمينة الـدار يصـطبغ لونهـا بـاللون الأحمـر القـاني، وكأنّهـا أدركـت كنـه الحكايـة وكنـه مولدها الجديد.

_ كـانوا إخـوة فـي وطـن واحـد، لـم يعرفـوا الحقـد والطائفيّـة، لـم يعرفـوا لـون الرصـاص ولـم يعرفـوا البندقيّـة، حتّـى الحـرب لـم يعرفوهـا سـوى مـن أخبـار غـزّة الهاربـة إلـيهم مـن أخبـار السـاعة الثامنـة والنصـف، ولكـنّهم لـم يـدركوا حينهـا أنّ الألـم الحقيقـي أكبـر مـن تلـك المشـاهد. فتلـك الأم التـي كانـت تصـيح وتبكـي لـم يشـعر أحـد بهـا إلا حـين بـدأت تلـك الجـارة بالصـراخ والنحيـب علـى أطفالهـا السـتّة الـذين لـم يبـق مـنهم مـن يخبرهـا بـأحلامهم الجديـدة والـذين نـاموا جمـيعهم ونـام فـوقهم البيـت يحتضـنهم خـائفٌ علـيهم مـن حـربٍ لـن ترحم أطفالها.

_ جاءت الحرب دون سابق إنذار ليتفنن الناس في قتل بعضهم بعضاً، وتفنن الطرف الآخر في بثّ الفتنة وبث إشاعات لا صدق لها.

جاءت الحرب ليقف الأخ في جبهة وأخوه في جبهة أخرى، وتعطى الأوامر لكلا الطرفين بإطلاق النار، فتدمع العيون وتصرخ الأفئدة، كيف يمنع ذاك الرصاص الكثيف عن صدر ذاك شقيقه؟ ينتهي إطلاق النار... ليعود أحدهم فقط إلى والدته ويبشرها بأنّها أضحت أمّ ثكلى دون إخبارها من زرع تلك الرصاصة في قلب أخيه، سيقسم لنفسه حين يقف أمام مرآته بعجزه وبحرصه على ألّا تكون لرصاصته نصيب من قلب أخيه.

أيّ حـرب آثمـة فعلـت هـذا؟ أيّ حـربٍ هـذه التـي قتلـت القلـوب قبـل أن تصـل الأجسـاد. تقتـل الجسـد فتمـوت معـه أرواحـاً كثيـرة، وكـأن هـذه الجسـد بمثابـة الـدواء لأهلهـا ، وقـد رحـل الـدواء فمـا فائـدة بقـاء الجسد وقد شاخ.

_ انقسم الشعب إلى نصفين:

النصف الأوّل هـو مـن بقـي فـي ظـلّ الـوطن، حـاملاً فـي جيبـه شـعارات الـوطن، لسـانه يصـدح بأغانيـه ، بيده اليمنى علم وطنه، وبيده اليسرى خريطة بلاده.

متّكـئٌ علـى جـدارٍ قـد هـدّم نصـفه وبقـي النصـف الآخـر يـروي لكـلٍ مـارٍ مـن هنـاك قصـة ذاك الجـزء المـدمّر منـه، اتكـأ علـى الجـدار ليـريح روحـه عليـه، مـادّاً يـده ليـودّع كـلّ هـارب مـن أرض الـوطن، وليلـوّح بيديـه

لكلّ من حمل حقائبه ورحل، وعلى خدّه دمعتين ترثيان من رحل دون وداع، ولم يتح فرصة صغيرة لوداع يليق به. ولا أمل في عودته مطلقاً.

أما النصف الآخر هو من اجتاز الحدود، هارباً من نار حربٍ، قد تطاله، رحل إلى لبنان، أو الأردن، أو مصر، أو أوروبّا، هرب مناشداً الأمان ونسي آلا أمان له خارج حدود الوطن.

وحين وصلوا تلك البلاد عادوا يناشدون حكومات لم تعترف بهم يوماً، أن تحملهم تلك السفينة الغبيّة وتعيدهم إلى ميناء الوطن مجدّداً.

صاروا يتحسّرون على ساعة واحدة قضوها في وطنهم وبدأت أصواتهم تتعالى دون أن يسمعها أحد

سـواهم، لأنّ صـدى أصـواتهم هـي مـن تعـود إلـيهم فـي كلّ مرّة يصرخون محملة بخيبات لا تنته .

وطنـــي... لمـا الكـلّ تـآمر عليـك وعلـى ياسـمينك الجريح؟

أيــا وطنـــي أمـــا آن لـــك النهـــوض مـــن كبوتـــك فتنفض غبار الحرب عنك؟

يـا وطـن لنـا نعشـقه... مـا ذنبـك فيمـا حصـل؟ ومـا ذنبك فيما سيحصل؟

مـا ذنـب سـماؤك الزرقـاء وقـد أحالتهـا جحـيم الحـرب إلى سوداء رماديّة؟

حتّى هواءها صار يخنق الأنفاس.

مــا ذنــب ياسـمينك وقـد غيّـرت الحـرب لونــه إلــى أحمرٍ قاني كالدم؟

لأنني لاجئة

ما ذنبك يا وطنٌ في كلّ هذا؟

لماذا الكلّ تراهن على تدمير حضاراتك ونسف أحلامك وتدمير أيامك؟

ولكن يا وطني من فعل هذا بك هو غريب ُعنك ولم يكن ابن ن لك يوماً، لم يشرب من مياه بردى ليعشقك ولم يشرب من العاصي والفرات، من شرب من مياهك يا وطني لن يقتل فيك نملة. ابنك بارٌّ يا وطني.

أبناؤك هم من كانوا يرسمون الشمس في زاوية الورقة وعليها ضحكتك الخجولة، وينشدون بصوتٍ عالٍ: ـــ يا وطني بحبّك يا وطني ـــ غادروك لوحدهم ومشوا إلى الأمام دون النظر إليك كي لا يبكيهم صمودك.

لأنني لاجئة

فــي طريــق مظلــمٍ ســاروا بعــد أن تركــوك وحــدك، وعيــونهم مــا زالــت تنظــر إلــى البعيــد، إليــك كانــت تنظــر ولكــن أيــديهم مقيّــدة لا يســتطيعون فعــل شــيء لجراحــك النازفــة. ذرفــوا العبــرات علــى الخــدود وأخــرى فــي القلــوب ، بكوا لأجل صمودك الذي بات يخجلهم.

لــم يعرفــوا علــى مــن تــذرف تلــك الــدموع، علــى غربتهم ووحدتهم؟ أم على وطنهم الجريح؟

أضــحى الــوطن حلمــاً يتمنّــى كــلّ مغتــرب العــودة إليــه، كــابنٍ مشــتاق إلــى حضــن أمّــه، فرّقــت الأيــام الســـوداء بينهمـــا، وعـــاد يومـــاً إلـــى صـــدرها فضـــمّها مشــتاقاً وانــدس فــي صــدرها خائفــاً مــن حيــاةٍ بعيــدة عــن حــدود أمانهــا، بكــى غربتــه ووحدتــه وهــو مــا زال ممســكاً بتلابيــب فســتانها الأحمــر وهمــس لهــا بعــد أن مســحت

دمعتــــه: أنّ الحيــاة بـــدون أمّ لا تطــاق فكيــف إن كانـــت هـذه الأم هــي (الـوطن)؟ وكيـف إذا كــان هـذا الـوطن هـو (سوريّة)؟

*   *   *   *   *   *

لأنني لاجئة

- ١ -

أحدث ارتطام ذاك الصاروخ الضخم في البناء المجاور ضجّة هائلة، مما أدّى إلى سقوطه وانهيار جزء من البناء القابع بجواره وتصدّع الأبنية الأخرى.

استيقظت نورة فزعة وتشبّثت بمالك، التصقت به كما يلتصق الرضيع بثدي أمّه، فقام هذا الأخير باحتضانها ليهدّأ من روعها، وهو يمسح على شعرها الطويل الأسود بحنان عاشق. بحثت بعينيها عن شهد الصغيرة.

- أوه ... ما زالت نائمة في مهدها، ولم توقظها الضجّة الهائلة.

قالت نورة ذلك وهي ماتزال متشبّثة بمالك وكأنّها لا تجد الأمان إلّا في أحضانه.

لم تستيقظ رغم تساقط الغبار العنيف من النافذة في الأعلى. وها هي تبتسم لأمّها ومازالت نائمة.

- ربّما هي تحلم بيومٍ جديد. لا حرب فيه.

قال مالك ذلك بعد أن نفض الغبار عنه وأبعد نورة قليلاً لينظر إلى النافذة الثانية في الأعلى التي تقع بمحاذاة الرصيف، فرآها وقد فرغت من زجاجها، ربّما لأنّها تقع على مقربة من ذاك المبنى الذي كان صامداً قبل دقائق من ارتطام الصاروخ به.

نظر إلى جميع من في الملجأ ثم قال:

- الحمد لله ،لم يصب من في الملجأ بأيّ خطر ولا حتّى جروح صغيرة

قاطعته نورة صارخة فزعة:

- ولكنّهبثّ الرعب في صفوف الأطفال فها هي بدأت تبكي وتنتحب وتصرخ وهم متشبّثين بأمّهاتهم.

لم يكن ملجئاً، كان مجرّد قبو لبناء مؤلّف من أربعة طوابق لم يكتمل بناءه بسبب أحداث الحرب، تحطم طابقين أعلاه أثناء ارتطام صاروخ مفاجئ به ذات ليلة شتوية. وبقي طابقين يحميان القبو والنزلاء فيه من صواريخ شتّى.

جلس القرفصاء بعد أن هدأت حدّة الاشتباكات، وعمّ السكون أرجاء المدينة وكأنّها مدينة أشباح خالية من أيّة حياة، أخرج علبة السجائر البيضاء من

لأنني لاجئة

جيـــب قميصـــه الأســـود الـــذي أصـــبح بفعــل الأوســـاخ والغبــار بنيّــا، أشــعل تلــك الســيجارة ونفــخ فــي الهــواء، محــاولاً تهدئــة أعصــابه بهــا، نظــر إلــى دخــان الســيجارة وأحــسّ بنصــرٍ وهــو يحرقهــا وكأنّــه يحــرق الحــرب معهــا. ســيجارته ملجئــه حــين تشــتدّ بــه الخطــوب، فكمــا شــهد تلجــأ إلــى نــورة حــين تجــوع، وكمــا نــورة تلجــأ لمالــك حــين تخــاف، فمالــك يلجــأ إلــى ســيجارته حــين يحــسّ بــأن الأمر خرج عن سيطرته.

أمّــا نــورة فبقيــت خائفــة مــن ســقوط صــاروخ آخــر تخســر فيــه مالــك أو شــهد وربّمــا تخســر نفســها فتبقــى شــهد يتيمــة الأمّ، وهــذا مــا كانــت تخشــاه. وضــعت يــدها علــى قلبهــا وباليــد الأخــرى هدهــدت شــهد كــي لا تســتيقظ، همست لمالك:

لأنني لاجئة

- كم أمنى أن تبقى نائمة ولا تزعجها تلك القذائف عديمة الرحمة،

هز رأسه دون أن ينظر إليها، أمّا هي فقد نظرت إليه وفي عينيها رجاء أن يخرجها من هذه المدينة الكئيبة، شتاء مدينتها أضحى قاسياً. تريد أن تخرج قبل أن تتحوّل إلى سماد لأرضٍ عطشى. تريد الخروج معه ولا تريد تركه وحيداً. وهذا ما يرفضه مالك الخروج من مدينة طفولته،

صرخ مالك في وجهها فطاير الزبد من فمه؟

أحياء لعبت بها يوماً، كيف لي بغادرتها؟

لن أحتمل أن تمطر على رأسي سماء غير هذه السماء. لن أحتمل أن أمرّ بأحياء لا تشبه أحياء مدينتي.

ثم صمت وصبّ جمّ غضبه على سيجارته الصغيرة وطال صمته وشروده ثمّ كسر الصمت حين رآها مستندة بجذعها على الجدار ذو الشقوق الصغيرة. خائفة من زمان يأتي تفارق فيه روحاً من روحها. وتكمل حياتها وحيدة...غريبة في أرضٍ لم تتمنَّ يوماً أن تطأها.

قال مالك بهدوء ظاهر:

لن أرحل عن مدينة أجدادي... سأموت فيها

ردّت نورة بتأفف:

وما ذنبي أنا... كي أعيش خوفاَ لا أطيقه... وما ذنب شهد لتعيش حرباً ربما تخسر فيها أحدنا أو كلينا.

أشار مالك بسبابته محذراً:

مئة مرّة أعدتها على سمعك وسأعيدها من جديد

ـ سأموت هنا ـ ارحلي إن أردت الرحيل.

أطرق رأسه قليلاً وأردف بصوت منخفض:

ولكن لن تغفر لك الأرض إن غادرتها وهي بحاجة إليك.

أجابت نورة كمحام يترافع أمام القضاء:

لا حاجة لي بالبقاء في أرض تقسو على أبناءها.

وأردفت بنبرة مستعطفة:

لن أرحل دونك يا مالك... نورة لا تحتمل العيش بدونك... لن أتركك تصارع النيران الهائجة وحدك. بينما أنا أعيش النعيم... لا ... لا نعيم بدونك... حياتي دونك كالجحيم... لنا الله يا عزيزي.

لأنني لاجئة

قال مالك بنبرةٍ آسفة:

- لنا الله يا عزيزتي... ولن يضيّعنا الله تعالى.

قبّلها من جبينها وضمّها إلى قلبه كي تغوص في أعماق روحه أكثر ولتستمع إلى نبضات قلبه الصارخة بحبّها وحبّ أرضه الطيّبة.

بكاء شهد الخافت جعل نورة تبتعد عن مالك كي ترضعها حليب الخوف والحرب، بحثت عن ثدي أمّها كي تنهل منه وتعود لتكمل حلماً لم تنته منه بعد.

وحدهم الصغار لا يعرفوا ما هي الحرب، ولا يدركوا لغزها، ولا يعرفوا لماذا تنشب؟

الكبار هم من يبدؤون اللعب بها ووحدهم الصغار من يخسرون. حملتها بين ذراعيها لتعطيها

نهـدها، لكـن شـهد مـا زالـت تصـرخ جائعـة، لا تكتـف بثـدي أمّهـا. قبّلتهـا بقلـبٍ حـزين. ونظـرت إلـى مالـك تستعطفه:

- لقــد فــرغ حليــب ثــديّ... لا حليــب لإطعــام شهد... ما عسانا نفعل؟

ضرب رأسه بكلتا يديه وصاح بغضب أرعبها:

- لمـاذا؟ وكيـف حصـل هـذا؟ قبـل أن تغفـو رضـعت إلى أن شبعت ونامت.

مـدّت يـدها نحـوه بحنـان وربتـت علـى كتفـه كـي تزيـل عنـه شـحنة التـوتّر والغضـب التـي بلغـت أقصـاها وقالت:

- ربّمــا ذاك الصــاروخ هــو الســبب فــي هــذا... الخوف هو من أفرغ الحليب.

لأنني لاجئة

صمت مالك يفكّر في حلّ لصغيرته،وقال:

- مـن أيـن أجلـبُ لهـا الحليـب ولا مجـال لتخطّـي الملجأ خطوة واحدة؟

منعـه مـن التفكيـر صـاروخٍ ثـان هـوى بجـانبهم فانهـار جـزء مـن المبنـى علـى رؤوس سـاكنيه، ضـمّهما إلـى صـدره بقـوّة وكأنّـه يحميهمـا مـن صـاروخ ثالـث ورابـع وخـامس، حماهمـا مـن ذاك الجـدار الـذي هـوى بجـانبهم ولـم يصـيبهم بـأذى. وكـأنّ هنـاك مـلاك حـارس حمى ظهورهم من الجدار الضخم.

وحـين هـدأ الانهيـار، وانهـار مـا كـان سـينهار، وبقي الجزء الآخر صامداً منتظراً دوره في السجود.

بـدأ النـاس يتراكضـون خـائفون ممـا سـيأتي، وآخـرون يبكـون مـن بقـي تحـت الأنقـاض، ويصـيحون

النجـدة، ويناشـدون الـدفاع المـدني كـي يـأتي وينقـذهم مـن جلـلٍ هـم فيـه. وآخـرون حـائرون جالسـون علـى الأرض واضـعين أيـديهم علـى خـدودهم، جـاهلين مصيرهم القادم.

خطـف مالـك شـهد مـن نـورة وأمسـك بـذراع نـورة عنـوة ليوقظهـا مـن صـدمة المشـهد وجرّهـا إلـى خـارج القبـو بقـوّة لأنّهـا كانـت فـي عـالمٍ آخـر أدركـه مالـك واحتـار كيـف يخرجهـا مـن متاهـة الخـوف والصـدمات العنيفة

حيـاة أخـرى تعيشـها المدينـة فـي الأعلـى، تختلـف عـن حيـاة القبـو التـي كانـت تعيشـها برفقـة مالـك. أبنيـة مـدمّرة بالكامـل، أبنيـة محترقـة مـا زالـت النـار مضـرمة فيهـا. مدينـة أشـباح غـدت وكـأنّ لا حيـاة فيهـا، حتـى

الشـجر لا حيـاة فيـه، وهاجـت ريـاح ينـاير تريـد اقـتلاع ما عجزت تلك الصواريخ عن اقتلاعه.

أيقـن مالـك أن لا نجـاة لهـم وأنّـه سيخسـر شـهد إن لـم يكـن بفعـل الصـواريخ سيكون بفعـل الجـوع، وهـذا جـلّ مـا يخشـاه. هـي ثمـرة عشـقه ونـورة بعـد قصّـة حـب دامـت خمـس سـنين توّجهـا بخـاتم فـي أصـبعها الأيسـر، وسيدافع عنهما بجسده إن أمكن له ذلك.

مشـــوا بمحـــاذاة المبـــاني المهدّمـــة، وأصـــوات الانفجـارات تطغـى علـى أصـوات الاشـتباكات. هـواء المدينـة أضـحى ملوّثـاً بغـازات سـامّة خلقتهـا الصـواريخ الضـخمة. لا هـواء فـي مدينـة الياسـمين. لا هـواء هنـا لتستنشـقه شـهد، فمـا زالـت تبكـي جوعهـا وخوفهـا، حتـى العصـافير رحلـت بعيـداً وأقسـمت بـذات اليمـين أنّهـا لـن

تعود إلى وطن فيه الحرب ما زالت قائمة. غدت مدينة الموتى ... مدينة حربٍ آثمة.

تخطّى البناء المشتعل بنيران هائجة وكأن جهنّم بداخله، وكأنّ الناس يصيحون النجدة ومع أنّه فارغ من أيّ شيء إلّا أن الجدران ما زالت تبكي قسوة النيران وتناشد أصحاباً لها طبعوا فيما مضى قبلة الوداع عليها، تناشدهم أن يعودوا ليطفئوا جشع النيران الهائجة.

ابتعد عن البناء الأبيض الكبير الذي ما زالت جدرانه تتساقط ببطء شديد وكأنّه يسجد لله في خشوع ويعرف أين القبلة؟.

كانت جثث من حاولوا الهروب ولم ينجوا ملقاة على الأرض، وعند كلّ جثّة محروقة كانت أو مبتورة

لأنني لاجئة

تغمض نورة عينيها وتتشبّث أكثر بمالك وكأنّها تريد اختراق جسده لتعيش في قلبه لعلّه يحميها من كلّ قذيفة تهوى فيهوى قلبها معها. كل قذيقة تسقط تظنّ نورة أنّها ستأخذ معها أحدهم، ولكنّها تفنّد ظنونها لتسقط على بعد شارع أو شارعين منهما.

هدأت المدينة أخيراً لتعطي فرصة لساكنيها لدفن الشهداء والبكاء عليهم. سكت صوت الرصاص المنبعث من شرق المدينة. ولاحت المدينة لهما بطولها وعرضها بشوارعها الواسعة المليئة بالحفر وأبنيتها المدمّرة كمقبرة مجهولة لا حياة فيها، مياهها حمراء... سماءها سوداء... هواءها ملوّث... شوارعها مدمّرة... أضحت أرواح ساكنيها كأرواح العجائز، كلّ واحدٍ منهم منتظر دوره للوصول إلى

حياة أخرى لا حرب فيها. لا شيء في هذه المدينة ينذر بالخير ولا شيء يبشّر بالخلاص من جحيم الحرب.

استطاع مالك أخذها إلى المنطقة الشمالية من المدينة وهي الأكثر أمناً من باقي المناطق الأخرى ما زالت الحياة سائدة فيها.

أخذها إلى منزل عجوز يعرفها تقطن بيتاً قديماً في تلك المنطقة هجره أبناؤه منذ اندلاع الحرب، لتبقى وحدها فيه، كانت هادئة ذو طباع حسنة، صامتة في كلّ الأوقات وكأنها تمارس رياضة اليوغا، لتفتح عينيها وتخبر بأماكن سقوط القذائف الصاروخية، وهذا ما جعل النسوة يجلسنَّ عندها في الصباح،

لأنني لاجئة

يحتسـينَّ القهـوة المـرّة وينظـرنَّ إليهـا وعيـونهنَّ هـي مـن تسألها عن أماكن سقوط القذائف الصاروخية.

نظـرت إليهمـا تسـتفهم بعينيهـا عـن حالهمـا، ثـم فتحـت البـاب علـى مصـراعيه ليـدخلا وينعمـا بأمـانٍ صـغيرٍ ريثمـا تـأتيهم ريـاح الحـرب تجـرّ معهـا المـوت والدمار.

أسـرعت لتحضـر لهمـا كأسـين مـن المـاء، وأخـذت الصـغيرة شـهد فـي حضـنها لتهدهـد لهـا، ولكـن الصـغيرة لـم تكـفّ عـن البكـاء. وضـعتها فـي حضـن أمّهـا وسـارعت بإعـداد حليـب مخصـص للكبـار فقـط، ولكـن مـا عسـاها تفعـل حيـال جـوع رضـيعة لـم تتجـاوز بعـد شـهرها السادس.

كانت العجوز كما الوطن أحنّ عليهما من نار الحرب اللعينة، نامت شهد أخيراً بعد أن امتلئ بطنها. ضمّ مالك نورة إلى صدره وهو يمسح بيده الدافئة شعرها الطويل. استطاعت أخيراً أن تبكي وهي في صدر مالك، دعت العبرات تنسكب كتلك القذائف الصاروخية. تشبّثت به أكثر، رافضة أن يبتعد عنها لو متراً واحداً، فلا أمان لها وهي بعيدة عن هذا الحضن. ذرفت دموعاً كثيرة ليست من نبت الأرض ولا من السماء انهمرت، دموع من نارٍ وحزن، من خوفٍ ورجاء.

نظرت العجوز لها وتعاطفت مع دموعها النافرة على وجهها والمتساقطة كحبّات الؤلؤ، ثمّ قالت:

- لست وحدك بالعذاب،. فهناك من يشاطرك البكاء. كلّ تراب الوطن ومن عليه يبكي الآن.

ذاك الجدار الذي اعتذر لك ألف مرّة على انهياره بجوارك دون قصد منه ولكن خارت قواه ولم يحتمل الوقوف أكثر. فالقذيفة استقرّت في ظهره وأردته قتيلا. كان يبكي على ذكريات كتبت عليه يوماً.

وتلك القذيفة التي نزلت على بعد زقاق واحد ولكن شظاياها وصلت واستقرّت أمام قدميكاعتذرت لك، ولكن لم تصغي لها جيداً. لم يكن هدفها أنت ولا إخافة طفلتك. كان هدفها أكبر من ذلك بكثير.

مسحت نورة دموعها بمنديل أعطته لها العجوز وقالت بصوت أشبه بالهمس، مليء بقهر السنين:

– مرّ عامان على حربٍ لا رحمة فيها، كبرتُ فيها عشرة أعوام وكأنّي عجوز في الثمانين ولم أكمل بعد عامي الخامس والعشرين، خسرت من عمري الكثير وضاعت أحلامي في غمضة عين، قتلت طموحي في الحصول على الماجستير في اللغة العربية،

فقد كانت تنافس صديقتها أيهما ستفوز به قبل الأخرى. ضمّها مالك إلى صدره من جديد ومسح عبراتها بيده الدافئة، ثم أبعد وجهها عنه ووضع يديه على كتفيها وقال بحنان اشتاقت إليه:

– الحرب هي السبب هدّمت مستقبلك كما هدّمت مستقبل الآلاف غيرك. مستقبل بنيته حجراً حجراً وانهار تعبي في لحظة صاروخية مفاجئة، بعد أن

لأنني لاجئة

كلّفني عشرات السنين في بناءه، في لحظة هدم تعب عشرة أعوام وهدم معه آلاف الذكريات المختزنة بداخله.

كشفت الحرب معدن أناس من الأهل والخلّان، تحوّلوا إلى ذئاب غادرة تريد نهش الماضي والحاضر والمستقبل . كشفت الحرب اللثام عن وجه الكثير ممن كانت تعتبرهم عوناً وسنداً لها ، ولكنّهم تاهوا وغابوا في زحمة الحرب ليبقى مالك فقط سندها وعوناً لها بعد الله. اختبرت معه مشاعر كثيرة لم تختبرها من قبل وفاز بالاختبارات جميعها لتجعله أمام العالم أجمع سيد قلبها ومولاها، وها قد جاءها اليوم الذي تخشى فيه أن ترحل روح مالك فتأخذ معها روحها.

مـرت الأيـام بطيئـة علـى نـورة كسـلحفاة هرمـة مازالـت تمشـي مئـة عـام ولـم تصـل وجهتهـا. والحـرب تزداد سوءاً والقتلى بالآلاف.

ركعـت تحـت قدميـه وتوسّـلت لـه بعـد أن قبّلـت يديه:

- لنرحـل إلـى مكـانٍ أكثـر أمنـاً. لـن تخـذلنا دمشـق فهـي وطننـا أيضـاً وستحتوينا كمـا احتـوت مـن هـم قبلنـا، لـن تتـرك أبناءهـا وحـدهم _ أمّهنـا الصـغرى_ ستضـمّنا إلى ذراعيها وتطوّقنا بعقد من الياسمين.

أجلسـها مالـك بجـواره ومسـح دمعتهـا التـي أضـحت سـخية فـي الأونـة الأخيـرة، هـدّأ مـن روعهـا بكلمـاتٍ بسـيطة،نظر إلـى عينيهـا وتأمّـل وهـج العبـرات وهـي تتوهج ثمّ قال:

– وعداً سأقطعه لك، لن أخذلك. سيأخذك إلى دمشق لتنعمين بالأمان هناك. بعيداً عن ويلات هذه الحرب.

سرّت بذلك كثيراً، هذا ما كانت تتوق إلى سماعه، وأخيراً ستنعم برغد العيش وأمانه بعيداً عن ويلات الحرب وبطشها. فعانقته كثيراً حتى كادت أن تكسر أضلاعه وقبّلته قبلات كثيرة وهي سعيدة كطفلة صغيرة أهدوها لعبة تعشقها.

كانت قبل أن تنام تتأكّد من وجوده بجوارهت وحين الاستيقاظ كذلك، كانت تخشى عدم الوفاء بالعهد، فهي تثق به ولكن لا تثق بالحرب، الحرب ستخذلها، وهذا ما تخشاه نورة وتتمنى أن يفنّد الحظّ الجيّد ظنونها.

لأنني لاجئة

استندت على الجدار الأصمّ واتكأت بكتفها على كتف مالك، لعله يحميها من الشر القابع خارج هذا البيت البسيط. شعر وللمرّة الأولى أنّه عاجزٌ عن حمايتهم. ضمّها أكثر لعلّه يخبّأها في قلبه فلا تخاف بعد اليوم. حتّى شبح الخوف لم يستطع قتله من قلبها.

شعر بالظلم الواقع به، بالعجز والاكتئاب والحزن والقلق والرعب والغضب، تعلّم الصبر والقوّة في عامين فقط، وهو من كان طائشاً لاهياً عن الحياة، غير آبه بها، تعلّم كتم الأحزان في قلبه، دون أن تلمح نورة ذلك على وجهه، أحسّ أخيراً بمعنى الأمان الذي حزم أمتعته وغادر من عامين، لم يعرف قيمة

وطنــه مــن قبــل. وهــاهو يتمنــى أن تعــود ســاعة واحــدة من الماضي حين كان لديه وطن.

جلست بجانبه وأعطته كأساً من الشاي ثم قالت:

- متى المسير؟

- قريباً، لا تستعجلي الرحيل فتندمين.

- لن أندم.

- بل ستندمين، واثقٌ من ذلك؟

- مالـــك... مـــا قيمـــة الأوطـــان إن لـــم تعطيـــك مســاحة صــغيرة تشــعرك بالأمــان. مســاحة صــغيرة فقــط تبكــي فيهــا وتنتحــب علــى وطــنٍ غادرنــا دون أن نشــعر به.

اطـرق رأســه ولــم يعقّــب علــى كلامهــا، فهــو يــدرك أن الحـق معهـا ولكنـه خـائف مـن اتخـاذ خطـوة صـعبة لا

يستطيع الهيش بعدها فهو مريضٌ بحبّ وطنه، يكتب اسمه على كل جدار يصادفه، ويرسم علم بلاده على كل بابٍ مكسورٍ مرّ بجواره، ملأ صوراً كثيرة للوطن في ذاكرته وأقسم أن يزورها كلّها حين ترحل الحرب وتترك الأماكن لأصحابها.

نامت نورة وهي متشبّثة بقميص مالك خائفة عليه من الهروب منها، نامت لتستيقظ هاربة من كابوس بثّ في قلبها خوفٌ أكبر

"نادت مالك فيه ثلاث مرّات ولم يسمعها، كان في دائرة من نور ينظر إلى السماء بقلبٍ خاشع، في حين تركها في العتمة راكعة على الأرض تناديه فلا يجيبها"

فتحت عينيها وكادت أن تصرخ فوجدته نائماً بجوارها ربّما يحلم الحلم ذاته. نظرت إليه لفترة طويلة وكأنّها تريد أن تحتفظ بتقسيمات وجهه إلى الأبد لتأخذها ذكرى لها إن رحل عنها. تأمّلته كثيراً ثم احتضنته وغفت عينيها وهي تحلم بالسير معه متأبطة ذراعيه في أزقّة دمشق الضيّقة.

استيقظ مالك فرآها متشبّثة به خائفة عليه من شر يطاله، نهض وجلس بجوارها تاركاً يديها حول وسطه ثم أمال جزعه على الجدار وعينيه مثبتتين عليها وعلى طفلته، يفكّر في قرارٍ سريع، لا يحتمل التأجيل، إمّا أن يرحل عن مدينته ولن يعود إليها في الوقت القصير أو ربّما لن يعود مطلقاً، فهي أرض طفولته، وأحلام شبابه، ومستقبل كهولته، أيتركها

ويرحـل هكـذا فـي غمضـة عـين؟ وإمّـا أن يبقـى هنـا ولكـن سـيندم فـي التأكيـد، سيخسـر واحـداً مـنهم أو سيخسـر نفسه ولن يستطيع حمايتهم من جديد.

ضـاق بـه هـواء الغرفـة فخـرج يبحـث عـن المزيـد ليتـنفس هواءالمدينـة قبـل أن يرحـل، ولكـنّ الهـواء الـذي جـاءه لـم يكـن صـالحاً للتـنفّس، ولأوّل مـرّة يخنقـه هواءهـا. حتّـى مدينتـه تـآمرت عليـه. ركـل الحجـر فـي طريقـه بقسـوة، وضـرب الجـدار المقابـل لـه بقبضـة يـده وكأنّـه ينـتقم مـن الحـرب ومـن نفسـه لأنـه إلـى الآن لـم يسـتطع أخـذ القـرار المناسـب. خبّـأ وجهـه بـين يديـه وبكـى قسـوة الحـرب وقسـوة الـوطن. بكـى كمغتـرب عـاد إلـى وطنـه وعنـد العـودة وجـد نفسـه فـي بـلاٍ غيـر وطنـه، بلـدٌ لـم يعرفـه مـن قبـل، ولا ينتمـي إليـه، تحوّلـت مدينتـه

في دقائق إلى أبٍ حنون يبكي قسوة ولده المهاجر دون وداع. عند اتخاذ قرار الرحيل تحوّلت الأمكنة إلى طفلٍ مدلل يتشبّث بثوب أمّه حين أخبروه أنّها لن تعود إلى حياة هو فيها.

خطوة المغادرة هي الخطوة الأصعب في قرار الرحيل، أثقل من جبل، أصعب خطوة يخطوها منذ نعومة أظفاره، ومنذ سماع من في المدينة بكاءه عندما كان رضيعاً في المهد. أصعب من الخطوة الأولى حينّ علّمته أمه السير وحيداُ .

واستيقظت به سنوات الأمس تناشده ألّا يرحل عن أرض شهدت ملاعبه، عن سماء لوّح لطيور السنونو يوماً مودّعاً. على سطح منزله كان يرقبها حين تأتي منذرة بقدوم الصيف، فينادي أولاد عمه

ويصعدون إلى سطح أعلى بناء في الحي ليستمتعوا بقدوم أسراب السنونو، ولا يكفّ عن النظر إلى السماء طيلة النهار ليعرف أين ستحطّ رحالها في النهاية؟ وعند الشتاء يبكيها مودّعاً ألّا ترحل مجدّداً. نسي مالك أنه منذ عامين غادرت ولم تعد مطلقاً. سماء مدينته لم تعد صالحة للتحليق ولم تعد صالحة لأيّ طائر سنونو بعد اليوم.

هنا كان أصفى وأنقى وأطهر وأصغر... سيذهب منها محمّلاً بكل الذكريات إلا نفسه سيتركها هنا.

لم تكن مجرّد جدرانٍ يفارقها ففي كل حجرٍ منها خبّأ عمره كلّه، ذكرياته كلّها ترويها له الجدران، ليس وحده من يرثيها، فالجدران ترثي من كان لها مؤنساً وصديقاً.

لأنني لاجئة

اتّخذ قراره أخيراً... سيودّع تلك الجدران ويملأ عيناه بنظرة أخيرة، ولكنّها لن تسمعه فهي نائمة كطفلة في مهدها، إلّا أنّ رؤيته لها تعطيه طوق نجاة يدفعه للتقدّم.

خرج من ذاك الزقاق الضيّق الذي طغى فيه عبير الياسمين على رائحة البارود. فلا حروب العالم كلّها تستطيع قتل ياسمين الشام بل ستبقى فوّاحة أكثر لتعلن للجميع أن لا قوّة تعلو فوق قوّة الياسمين، فكيف إذا كان هذا الياسمين منبته دمشق؟

مشى في دروبها الطويلة والمهجورة بعض الشيء، مرّ من أمام مدرسته، شم بها رائحة ماضيه وكأنها تعيد الزمن إليه بساعاته بذكرياته بأناس قاسموه يوما كل شيء حتى أنفاسه. لم يكن هناك

مدرسة، كانت عبارة عن بناء مهجور أكلت منه القذائف ما أكلت.

وهذا الملعب أيضاً ... ياه كم شهد ضحكاتهم هو وأصدقائه ومرحهم وصخبهم، رأى به ملامح طفولته، لمح بها رفاقه الذين كبروا وغابوا، وكل واحدٍ منهم ابتلعته بلد ومنهم من ابتلعته أرض رافضة أن تدلّهم على مكانه. نّقب عن آثار براءته، تتبع خطوات شقاوته على أرضها وبكى بمرارة. وتمنى لو تعاد لحظة واحدة من تلك اللحظات.

سيرحل إذاً، وينسى هذه الذكريات لتعلق في ذهنه ذكريات الحرب فقط، ستفتح له دفاتر أغلقها هو مراراً، وستستعرض أمامه صفحات الحرب، ستعيد إليه ما رماه في خزانه الذاكرة متعمداً وكم تمنى مع زحمة

الأيـــام أن ينســـاها ولـــن ينســـاها، لتخبـــره أن الفصـــل الجديـد مـن حياتـه قـد ولـد مـع الحـرب وكـل مـا كـان قبـل الحرب وجب عليه نسيانه.

وصـل إلـى دار أهلـه فوجـد الـدار ولـم يجـد الأهـل، كـان الـدار سـليماً، لا خـدش فـي جـدار ولا حـرقٍ فـي أثـاث، وكـأنّ الحـرب نسـيته ولـم تـراه. تلمّـس البـاب فكشـفت لـه جرحـاً مخبّئـاً، وأتـت لـه بـأرواح لـوح لهـا يومـا مودعـا ولوحـت لـه باكيـة. وأرواح قبّلهـا مودّعـاً ورحلـت بجسدٍ بارد. ولن تعود لتفتح الدار مجدّداً.

وصـل إلـى حيـه الصـغير، فنادتـه بيوتـه، خيّـل إليـه أنـه سـمع أصـوات أصـحابه الـذين كـانوا يقطنـوه، التفـت حولـه، فلـم يلمـح سـوى بقايـا الحـرب تنـبض بـروح

الأمس وكأنهم ما كانوا، لم يسمع سوى همس القذائف القادمة من الجهة الشرقية.

وصل إلى بيت جيرانه، منزل عائلة نورة، ابنة الجيران التي أحبّها مالك منذ الصغر، شعر بغصة تتسلل إلى أعماقه وتشعره بمرارة تستقر في قلبه، فهنا أحبها وكان لقاؤهما الأول، تحت هذه النافذة تبادلا همس الحب وكلام العشق. وهنا كانت فرحة عمره وفيه أنجبت له ثمرة ذاك الحبّ.

لم يدخل الزقاق الصغير الذي يضمّ منزله ومنزل جدّه فقط. أغمض عينيه أمام الزقاق ألما، كان يعني له الكثير، هذا الزقاق احتوى أحلامه في مهدها كالأم، ومسح على حزن لياليه كالوطن، ومنحه الفرح

والأمـان بـلا حـدود، فكيـف يعـود إليـه وهـو فاقـد الأمـان والفرح والوطن؟

لـم يدخلـه... عـاد أدراجـه ليسـتمتع بأحيـاء الـوطن فتـرة أكبـر، كـان المسـلّحون يختبئـون بـين أزقتهـا الضـيّقة غطـوا وجـوههم بلثـامٍ أسـود. كـي لا يتعـرّف إلـيهم أحـد. وحـده مـن كـان يمشـي بخطـى ثابتـة وكـأن الموسـيقى الناتجـة عـن تلـك الصـواريخ لا تعنيـه، لـم تلفت حاسـة الشـمّ عنـده عينيـه إلـى رائحـة الجثـث، لأنـه كـان يسـير وعينـاه تنظـران إلـى الأمـام، إلـى شـوارع مدينته المحتضرة.

لـم يسـتطع رؤيـة الخـراب أكثـر لـم يتحمـل قلبـه أكثـر مـن ذلـك. سـيرجع إلـى بيتـه ويقبّلـه ثـم يعـود قـافلاً إلـى

نـورة كـي يرحـل معهـا إلـى حيـث تشـاء ليأخـذها مـن هنـا وفي قلبه غصة من عذاب ولوعة.

عـاد إلـى حيّـه وأغمـض كلتـا عينيـه كـي يعـيش إحساسـه فـي وطـنٍ سـيغادره، وطـن مـا عـاد لـه. علـى هـذا الرصـيف بجانـب بيـت أبـي إسـماعيل كانـت النسـوة يجلسـنَّ ويحتسـين القهـوة ليبـدأن الحـديث عـن جـاراتهنَّ الواحـدة تلـو الأخـرى. ولكـنّهنّ مـا عـدن هنـا ومـا عـدن يتصـلن ببعضـهنّ ليعـرفن مـن دفـن مـن أبنـاءهنّ ومـن رحـل مـن كبـارهنّ. وهنـا كـان أطفـال الحـيّ يتقـاذفون الكـرة فيـوبخهم أبـا أحمـد لأنّهـم أفسـدوا بضـاعتهم بكـرتهم القاسـية، أبـو أحمـد مـات بذبحـة قلبيـة، حـين غـادر مدينتـه فغادرت روحـه إلى من هـو أرحـم مـن هـذه

الحرب، وأطفال الحي ما عادوا هنا، كلّ حيّ في مدينة ضمّ واحد منهم.

وصل إلى زقاقه الكئيب، استجمع شجاعته ودخله وفي قلبه لوعة من ألم، وشعور بفراق لا عودة بعده. ولأوّل مرّة يراه خالياً من أنفاس ساكنيه وضحكاتهم الصاخبة وابتساماتهم، خالياً من الحياة بعد أن أصبح مهجوراً وكأن ساكنيه قد رحلوا عنه منذ مئة سنة، بيوته مهدّمة، ورائحة البارود ما زالت منبعثة من بين جدرانه الساقطة، وكأنه هوى منذ فترة ليست بالطويلة، وصل إلى بيته الذي أضحى كومة حجارة لا تدلّ على مكان لساكنيه. وجد لعبة شهد على الأرض مغطّاة بالتراب، حضنها بين يديه كما يحضن شهد حين تخاف، رأى في عيني تلك اللعبة

لأنني لاجئة

عينـــي شـــهد الصـــغيرة. أخيـــراً... اســـتطاع أن يصـــرخ، ويخـــرج آه مكتومـــة بصـــدره لســـاعات، انهـــار علـــى الأرض كمـــا الجـــدران، مـــاذا يصـــنع الآن وقـــد ضـــاقت بـــه جـــدران البيـــت ولـــم تعطـــه مســـاحة صـــغيرة ليبكـــي فيهـــا وطنـــه؟ ضـــاق بـــه الحـــيّ الصـــغير كمـــا ضـــاقت بـــه ســـماء مدينته السوداء وضاق به الوطن الكبير.

اشـــتمّ رائحـــة الياســـمين مـــن خلـــف جـــدارٍ صـــامد لـــم ينهـــار، وحـــده هـــذا الجـــدار بقـــي صـــامداً يحتضـــن خلفـــه نبتـــة الياســـمين، خـــائفٌ عليهـــا مـــن مـــوتٍ يطالهـــا فيمـــوت الوطن لموتتها.

أليســـت غريبـــة هـــذه المدينـــة تمضـــغ فـــي عشـــاءها رصـــاص القـــاتلين وفـــي الصـــباح تســـتيقظ علـــى بـــوح الياسمين!

لأنني لاجئة

أليست غريبة هذه المدينة رغم كلّ ضجيج السلاح، تشمّ في فجرها عبير الياسمين رغم وقاحة البارود!

أليست غريبة هذه المدينة رغم كلّ جراحاتها النازفة ما زالت تبتسم للياسمين، ما زالت تبتسم لشعبها راجية ألا يغادرونها، فلا قدرة لها على تحملّ صخب الحرب لوحدها.

جلس بجانب نبتة الياسمين يغنّي ويروي لها ذكرياتٍ شاركته بها يوماً. نام دون أن يدري أنّ للقذائف موعد في سماء المدينة كما للموت موعد أيضاً. ولن تخلف القذائف موعدها.

وانهمر مطر مدينته مدراراً كعادته، لا ماء في سماءها تمنحه للمتعطّشين للأمان، لم يكن في

حوزتهـا سـوى قـذائف طائشـة لا تـدر مصـيرها ولا تـدر إلـى أيّ ديـار ستسـقط. وأيّ جسـدٍ سـتختاره ليرحـل معها.

نـام مالـك فـي تلـك الليلـة مكـوّراً نفسـه خلـف الجـدار مختبئـاً، يحمـي نفسـه أوّلاً مـن بـرد ينـاير، فشـتاء ينـاير قـاسٍ جـدّاً هـا هنـا، فكيـف إذا كـان مالـك بـلا مـأوى، سـيكون قاسـياً وظالمـاً. نـام وهـو محتضـن لعبـة شـهد الصغيرة.

حلـم بكـلّ شـيء... بعائلتـه الصـغيرة وأصـدقائه وأطفـال حيّـه جمـيعهم أتـوا ليشـاركوه جلسـة الـدار والنـوم معـه تحـت ظـلال الياسـمين، حلـم بكـلّ شـيء ولـم يحلـم بالأمان.

وعند الفجر وحين أشرقت الشمس على الجميع دون استثناء. حاولت أن توقظ مالك بدفئها الخفيف ولكنّه نسي الاستيقاظ ذاك الصباح كما نسي وعداً قطعه لنورة. نام تلك الليلة ولم يستيقظ فجر اليوم التالي. احتضنته جدران البيت كما احتضنت من قبله نبتة الياسمين، ضغطت عليه بكلّ قوّتها كي لا يرحل عنها ويبقى مواسياً لها في وحدتها، لم يناديه أحد ليستيقظ وينفض الغبار عنه، بل بقي في مكانه تراه نائماً مكوّراً جسده البارد، خائف من حرب تطول ولا تنته ، ومن حلم سيخذله، ووطن سيهجره.

نام نومته الأخيرة لتصعد روحه إلى السماء فتشتكي خالقها ظلم قتلها، بأيّ ذنبٍ قتل مالك ونورة أضحت أرملة وشهد يتيمة دون أن تدرك معنى الأبوّة؟

لأنني لاجئة

روحـه لـم تكـن وحيـدة تطـوف فـي تلـك السـماء، بـل كــان هنـــاك الآلاف غيـــره مـــن أطفـــال ونســـوة ورجـــال وشـــيوخ قتلـــتهم الحـــرب دون ســـبب يـــذكر، لا شـــيء يجمعهـم فـي تلـك السـماء سـوى وطـن واحـد ضـاق بهـم، فحملتهم السماء إليها.

مـــات مالـــك الشـــاب ذو الشـــعر الأســـود والعينـــين البنيّتـــين، كـــان طـــويلاً بمـــا فيـــه الكفايـــة ليقطـــف التـــين لنـــورة مـــن الشـــجرة العملاقـــة حـــين كـــان خاطبـــاً لهـــا، لـــم يكـــن بـــديناً ولـــم يكـــن نحيفـــاً، ســـماره جعـــل الفتيـــات يتراكضـــن نحـــوه ويهمســـن بإعجـــابهن حـــين يمـــرّ مـــن أمـــامهن، ولكـــن قلبـــه امتلـــئ بواحـــدة فقـــط، وجعلهـــا أميـــرة لكلّ النساء.

رحل إذاً مالك وترك نورة تبكي ما كانت تخشاه.

لأنني لاجئة

استيقظت هي على أزيز الرصاص الموحش وانفجارات القذائف الساخرة من الأبنية المدمّرة بسببها. هكذا أضحى الاستيقاظ في المدينة فيما سبق كان الاستيقاظ على زقزقة العصافير وصياح الديكة. هربت العصافير معلنة الاستسلام لتحلّ محلّها أصوات همجية لا تعرف الرحمة. رحلت تلك العصافير إلى مدنٍ لا حروب فيها، رحلت بعد أن كانت تزعج نورة بزقزقتها الصاخبة على أغصان شجرة التين المعمّرة، ليت تلك الشجرة بقيت وليت العصافير لم ترحل فعزفها كان العزف الأمثل والأفضل من عزفٍ صاخب لقذائف مجهولة المصدر.

بحثت بعينيها عن مالك... فلم تجده أمام ناظريها كما اعتادت في سنوات الحرب. سألت

العجوز عنه ولكنّها لم تره. كانت العجوز تعدّ طعام الإفطار وتجهّز الحليب لشهد في حال استيقظت فجأة. كانت تسبّح الله وتستغفره في الدقيقة مئة مرّة وهي تقوم بعملها. هي امرأة طيبة بالفعل لكنّها وحيدة إذ تفتقد الجيران والأهل والخلّان، ومع ذلك تشعّ من روحها ابتسامة صافية تمنحها لكلِّ من تراه.

خرجت نورة تبحث عنه خارج البيت ولكنّ الأصوات كانت تأتيها من الجهة الشرقيّة قاسية وصاخبة. وضعت يدها على قلبها خائفة أن يصدق حدسها وتبقى وحيدة.

انقضت الساعات ولم يعد مالك، انقضت الأيام ولم يعد مالك، انقضت الأسابيع ومالك لم يعد،

لأنني لاجئة

انقضت الأشهر ومالك لا يوجد له أثر، انقضت السنون ومالك لم يمحّ من ذاكرة نورة.

كلّ الأصوات الصاخبة المنبعثة من شرق المدينة تخبرها أن مالك لن يعود... تقول في نفسها:

- ابكيه يا صغيرة الآن وارثيه، قبل أن تبكيه حين تريه قطعة لحم لا حياة فيها.

عند شروق الشمس وعند غروبها تقف لتنتظره... في الليل الطويل وفي النهار القصير تنتظر عودته. وإن كان مثخناً بجراحه ستعتني به جيّداً إلى أن تشفى جراح جسده روحه أيضاً.. لم تكن تعلم أنّ مالك بات نائماً على عتبة منزله محتضناً لعبة شهد وكأنّها صغيرته.. نبتت بجانبه نبتة ياسمين جديدة

لتصاحبه في عالمه الجديد. بقي حارساً للبيت الخالي من سكانه ومن جدرانه ومن أعمدته أيضاً.

جاءها أخيراً الخبر الذي كانت تخشى البوح والتفكير به. جاءها من يخبرها:

- احتسبي واصبري، عليك إعلان الحداد وارتداء السواد، فقد حان الوقت لذرف العبرات، فاذرفي يا أخيّة واسكبي ما شئت من عبرات.. فلا مجال في المستقبل للبكاء...

جاءها من يخبرها بأنّ:

- الوطن ضاق بمالك كما ضاق بمن سبقوه، حتّى الأرض أبت أن تخبّئه في بطنها فلفظته على أرضها نائماً وكأنه يحلم بيوم ينعم فيه بسلام، أبقته

على أرضها حارساً للبيت الذي احتمل غضبه وضحك لضحكه، ر

حل بجسده ولكن روحه ستبقى ترفرف حول نورة وشهد لتحميهم من كلّ رصاصة غادرة لا تعرف هدفها.

نصف ساعة وهي في صدمة، تحاول أن تفهم ما أخبرها عنه نذيرُ الشؤم ذاك، كيف لهذا الرجل ذي اللحية السوداء أن يأتي بوقاحة ليحمل لها خبراً كهذا؟ كيف للسانه أن ينطق ويقول ـ بأنّ مالك لم يعد له مكان في وطنه ـ وهو الذي أقسم لها آلاف المرّات ألا يخذلها، وإن تخلّت عنه روحه، وإن تخلّى عنه الوطن، لن يتخلّى عنها. وهو الذي أقسم لها مراراً أنه سيحميها من حرب ليسوا هدفها ضحيّتها،

لأنني لاجئة

كيف له أن يرحل وقد وافق أخيراً على خروجهما من هنا للرحيل إلى وطنٍ يستوعبهم فيه من الأمان الكثير.حنث بوعده لها وكان كاذباً في وعوده الكثيرة؟

لم تعد تحملها قدماها،خارت قواها وجثت على ركبتيها تبكيه وترثي حبّاً جمعها به وكان صادقاً. تبكي الحبيب والزوج، الأخ والصديق، تصرخ صراخاً يقطّع القلوب ثمّ تهدأ لترى إن كان الخبر صادقاً وحين تلمح الحزن في عيون الجميع تعود لتخرج من قلبها ومن أعماق روحها صرخة أشدّ وجعاً، صرخة ألم وقهر،، صرخة ظلم. حملت تراب من الأرض وعفرت به وجهها لعلّه يرحمها ويخبرها بأنّ مالك ما زال بانتظارها أمام عتبة البيت.

إلى من تركها ... إلى أهلٍ لم تجد الحنان فيهم؟

لأنني لاجئة

إلى وطنٍ يرفض انتمائها إليه؟

إلــى مــن تركهــا ورحــل دون وداع لهــا؟ ســافر مــع السـنونو حيـث الأمـان، وتركهـا وحـدها تتجـرّع ويـلات الحرب.

مـا بـال هـؤلاء يتفرّجـون عليهـا هكـذا! لـو كـان مالـك هنـا ـ لـو كـان ـ لمـا سـمح لهـم بـالوقوف هكـذا أمامهـا والنظـر إليهـا وكأنّهـا مجنونـةـ لـو كـان مالـك هنـا ـ لربـت علـى كتفيهـا بحنـان عاشـق واحتضـنها، الآن يحتضـنها ويربـت علـى كتفيهـا... ولكنّهـا مـن الآن لـن تشـعر بـه إطلاقاً.

وصــفته بالخــائن، ألصــقت بــه جميــع الصــفات السـيّئة مـن غـدر وكـذب، لـن تسـامحه إطلاقـاً علـى

خيانتــه بحقّهــا، فحياتــه لــم تكــن ملكــاً لــه ليفعــل بهــا هكذا، كانت من حقّ شهد ونورة أيضاً.

أضــحت حياتهــا كئيبــة أكثــر مــن كآبــة وطنهــا، أضـحت كورقـة أخيـرة فـي شـجرة خريـف صـفراء، تلعـب بهــا الــريح كيفمــا تشــاء وتطيــر بــالهواء فــي كــلّ الاتجاهــات ولكنّهــا تعــود إلــى مكانهــا محمّلــة بخيبــات الريــاح الهوجــاء. لــيس لهــا أرضٌ تهــوى إليهــا ولا ســماءٌ تطير فيها، والشجرة ضاقت بها تريد الخلاص منها.

كيـف تعيش فـي وطـنٍ مالـك لـم يعد فيـه؟ فـي وطـنٍ خسرت فيه الأمان أضحت فيه وحيدة؟

انتظـرت عودتــه وهــي جالســة أمــام النافـذة، تكـذّب الجميــع وتبتهــل إلـــى الله عودتـــه. جاءتهـــا العجـــوز

وجلست بجوارها تنظر إليها بعيون مثقلة بالآمال، وهمست لها بهمس يشيه حفيف الشجر:

- مالك أضحى في رعاية الإله... وهناك سيكون بأمان.

- وأنا؟ والصغيرة؟

- ارحلي إلى دمشق ستحتويكِ مع طفلتك ولن تضيّعك بتاتاً.

سمعت نورة ماقالته العجوز بقلب منفطر، وهزت برأسها علامة القبول، وفي الصباح حملت حقيبتها الصغيرة، وقبّلت العجوز الطيّبة أعطتها علبة الحليب المخصصة للكبار لإطعام شهد إن جاعت، ولحقت بركب من رحلوا. إلى مكان ينعم بالأمان، إلى مكانٍ

تستطيع فيه رعاية شهد الصغيرة دون خوفٍ من قذائف طائشة.

وصلت إلى حدود المدينة، أفسح لها ذاك الجندي الصغير الطريق كيّ تمر، نظرت إليه والتفتت إلى الوراء، فلاحت لها أبنية المدينة المدمّرة وسماءها الموشّحة بالسواد، حاولت أن تصغي إلى زقزقة العصافير ولو كان عصفوراً صغيراً لم يرحل كأخوته، ولكنّ أزيز الرصاص هو سيّد الموقف وتبعه بدقائق قذائف تعرف مصدرها ولكنّها تضلّ الطريق دوماً. لم تستطع أن تشمّ عبير الياسمين فرائحة البارود سيطرت على جميع الروائح باستثناء رائحة الجثث المتعفّنة.

همست نورة في قلبها:

- أرجوك يا وطني... تركت فيك وطناً صغيراً وحلم بمستقبل جديد، تركت فيك أمل لأيّام قادمة وبسمة وطن، أحمي جسده يا الله... وأخبره أن لا مكان لي في وطن أصبح فيه رقم كبير يضاف إلى أرقام كثيرة... أصبحت رقم أنت يا مالك لم يعد اسمك يهم أحد ـ اسمك الجديد هو الجثّة ـ فهل ستتقبل اسمك هذا؟ أم ستخبرهم أن ينادوك برقمك الجديد؟

استدارت إلى الجندي وشكرته لأنّه سمح لها بوداع وطنها وأرواحا سكنت فيه. ساعدها على حمل حقيبتها ليوصلها إلى سيّارة من نوع هونداي كان فيها أناسٌ قرروا الهروب مثلها فحملوها معهم.

لأنني لاجئة

خرجت من مدينتها بعد أن تركت أغلى ما تملك فيها، واتجهت إلى مدينة الياسمين، فإن ضاقت بها مدينتها بلاد الياسمين ستفتح لها أحضانها.

* * * * * *

لأنني لاجئة

ـ ٢ ـ

جلست تستريح على رصيف متهالك في مدينة الياسمين، لا شيء يدلّ على هويّتها سوى ثيابها التي تظهر للعامّة أنّها خارجة للتو من مدينة تهدمت وضاعت فيها أحلام وآمال كانت ترعاها لتكبر معها، فكبرت نورة وماتت تلك الأحلام بموت مالك. كانت المدينة تختلف كثيراً عن مدينتها ، هناك حرب ودمار وهنا أبنية تبنى وباعة جوّالة تصرخ معرضة بضاعتها على الملأ، أطفالٌ يلعبون الغميّضة ويختبئون في أحياء دمشق، وخلف شجرة النارنج الصغيرة، فتيات مراهقات يتضاحكن ساخرات من بعضهن، وشبّان

لأنني لاجئة

يختبئون في الأزقّة الضيّقة يدخنون سيجارة سرقوها من جيب والدهم أو استعاروها من بعضهم، وكأنّها مدينة أخرى في دولة لا تمتّ بصلة إلى دولة الحرب.

واصلت سيرها البطيء وتجمّعت في عينيها دموع فضولية تشاهد قدما نورة إلى أين ستأخذها. تجمعت دموعها لتحكي يتم طفلة لم تبلغ شهورها الستّة الأولى، لتحكي رواية مالك ورفضه مغادرة بيته فاستجاب له القدر أن جعل جسده سماداً لنبتة الياسمين.

استجمعت في ذاكرتها ما قاله مالك قبل رحيله "لن أخرج من مدينتي فيها ولدت، وفيها عشت طفولتي، و قضيت مراحل شبابي، لن أتركها، هي جزء مني وأنا جزء منها، إن رحلت عنها يوماً وعدت

إليها من جديد، لن تسامحني الجدران الساجدة على خذلاني لها. لن تسمح لي عتبة البيت بالمرور من فوقها بعد هروبي منها، حتّى نبتة الياسمين لن تسامحني وستموت في غربة الوطن ولن أكون هنا لأشيّع غربتها، لأحفر قبرها وأبكي عليها".

ها هو الوطن يرثي مالك، مازال في وطنه صار جزءاً من الأرض التي رفض الرحيل عنها، والتحمت هي به محذّرة الجميع من الاقتراب منه. هل سيمنحه وطنه تكريماً لوفائه قبراً منفرداً؟ أم سيمنحه وآخرون قبراً جماعية ليتسامروا سويّاً ولا يقتلهم الملل؟ أم سيبقى في العراء وجبة عشاء لكلاب ضالّة وذئاب جائعة تلهث وراء اللحوم البشريّة؟ أصبحت تلك الذئاب والكلاب في الآونة الأخيرة شرسة جدّاً

وذات بطــون ممتلئــة بأطايــب اللحــم البشــري. ففــي كــلّ زقاق وحي عدد من الجثث المنسيّة.

وصــلت إلــى وجهتهــا أخيــراً، فــي دمشــق القديمــة ـ القنــوات ـ فــي زقــاق ضــيّق فيهــا، آخــره بيــت صــغير لــه بــابٌ خشــبي ذو لــون أســود، طرقتــه نــورة ثــلاث طرقــات صــغيرة ، مــا هــي إلّا دقيقــة حتــى فــتح لهــا شــابٌ طويــل، فــي ملامــح بشــرته البيضــاء شــيء مــن نــورة، ولكنّــه أطــول منهــا بكثيــر، نظــر إليهــا داهشــاً قبــل أن يقــوم باحتضانها وخطف شهد من أحضانها.

حــين انــدلعت الحــرب هــرب إخــوة نــورة إلــى دمشــق الأكثــر أمانــاً، لــذلك هــي كانــت بعيــدة كــلّ البعــد عــنهم، كــانوا يتوسّــلون لمالــك أن يخــرج لينقــذ أختــهم مــن حــربٍ هــم أضــعف منهــا، لكنّــه كــان يتشــاجر معهــم ويغلــق

الهاتف في وجههم، رافضاً سماع المزيد. كانوا في بلدٍ كبيرٍ لا يعرفون أخبار بعضهم سوى من أخبار التلفاز، هي في بلد تضجّ بحربٍ شرسة وهم في بلد تنعم بالحبّ والسلام.

بعد سنتين تعود نورة إلى أحضان إخوتها ومعها طفلة يتيمة، دمعها على الخدين منضود، تبكي قسوة الحرب التي لم ترأف بمالك، وقسوة الصاروخ الذي انفجر أمام الملجأ حيث سقط جزء من البناء عليهم، قسوة القنّاص القابع فوق البناء العالي الذي أشار ببندقيّته عليهم دون أن يعرف من هم. بكت بين يدي إخوتها الثلاث كطفلة أخبروها للتوّ بيتمها بعد أن استقبلت الجنّة أمّها، كطفلة سرقوا منها حلواها.

لأنني لاجئة

استقبلوها بحبِّ الأخوّة، وحنان الأب، هي وحيدتهم وليس لها حضن في هذا العالم سوى أحضانهم، والدهم قبل موته لم يكن له وصيّة سواها. نفّذوا وصيّته، لكنّ من فرط خوفهم عليها جعلوها مقيّدة على الدوام بعادات وتقاليد المجتمع التي فاقت قسوتها قسوة الحرب اللعينة.

جهّزوا لها غرفة صغيرة تقيم فيها مع شهد، لم ينسوا إحضار علبتي حليب للصغيرة تغنيها عن حليب الكبار. كانت توافق على كلّ شيء بإيماءة من رأسها ودمعة يتيمة لا تعرف أين ستنهمر؟ هي لا تريد الآن سوى أن تنهار على كتف حنون تبكي له ظلمٍ تعرّضت له. وتخبره رواياتٍ شاهدتها لحظة خروجها من هناك.

لأنني لاجئة

لا شــيء فــي مـدينتها تلــك ســوى جثــث مجهولــة، كـلاب شـاردة هائجـة جعلـت تلـك الجثـث وجبتهـا الشـهيّة، حريـق فـي كـلّ حـي، بيـوت سـوت علـى الأرض ، ذكريـات مدينــة كاملــة انهــارت فــي لحظــات، جثــث متفحّمــة، أيــادٍ مبتـــورة، أصـــبحت مدينـــة المـــوت، لا حيـــاة فيهـــا ولا رحمــة ولا حــبّ ولا أمــان، ســرقوا مالــك منهــا ليجبروهــا علــى الهـروب وحـدها، ومالــك هـو مـن سـيتكفّل بحراسـة الــذكريات، هــدموا البيــت ولكــن أنــى لهــم أن يهــدموا ذكرياتــه، وبكــت أخيــراً قبــل أن تــدفن رأســها فــي ألامهــا كما النعامة. بكت عمراً سيأتي وعمراً مضى.

ليــتهم ســمحوا لهــا بالبكــاء عليــه، لكــان الحــزن أرحـم والمصـيبة أخـف وطـأة، ليـتهم سـمحوا لهـا برؤيتـه، وبحفــر قبــرٍ لـــه يضـــمّه لتبكيـــه حـــين تنتهـــي الحـــرب

وتخبـره مـا فعلـت بهـا الأيّـام بعـده، حتّـى قبـراً منفـرداً لـم يمنحـه هـذا الـوطن الغـالي. ولكـن بعـد أن تركـوه هنـاك، أيّ قبـرٍ سيضـمّه، وأيـن سـيكون رفاتـه ؟ أيـن سـتجده إن أرادت أن تستريح من عبئ الحياة؟

خالـد وكـريم وأحمـد فتحـوا بيـتهم لأخـتهم الوحيـدة ولـم يفتحـوا قلـوبهم لهـا، واسـوا أخـتهم بكلمـات يسـيرة علـيهم عسـيرة عليهـا، مهمـا تكلمـوا وتحـدّثوا وأعلنـوا تضـامنهم معهـا لـن يشـعروا بمـا تشـعر بـه ولـن يعيشـوا إحسـاس الوحـدة كمـا تعيشـه. لـن يشـعروا بمـرارة الألـم الساكن بداخلها.

وبـدأت حيـاة جديـدة فـي بيـت إخوتهـا وهـي أرملـة صـغيرة، مـع خالـد وهـو يكبرهـا بسـنتين ويليـه كـريم

الــذي يصــغرها بســنة واحــدة وأصــغر مــن فــيهم أحمــد الذي كان يصغرها بخمس سنوات.

كانــت طلباتهــا وطفلتهــا مجابتــان علــى الفــور دون تلكـؤ فـي ذلـك، لا أحـد يعكّـر صـفوها، لهـا مـا أرادت علـى الـدوام ريثمـا تنتهـي العدة ويزوجونهـا إلـى مـن هـو كفـؤ لهـا. وهـذا مـا كانـت تخشـاه. جسـدها محـرّم علـى الرجـال جمـيعهم، لــن تــدع أي أحــد يلمــس جســدها بعــد مالــك، ســتبقى لــه طــوال عمرهــا وإن لــم يكــن مقــدر لهــا. مــا تريــده مــن الحيــاة شــيئاً واحــداً فقــط أن يخبرهــا أحــدهم مــن تلــك المدينــة الكئيبــة ويفنّــد مــوت مالــك. ســتركض إليــه وتعانقــه وتقبــل العــيش معــه علــى أرض صــلبة وكــأس مــاء فقــط وكسـرة خبــزٍ يابســة. كــلّ شــيء يهــون أمام ذهاب دون إياب.

لأنني لاجئة

فــي كــلّ صــباح لا صــديق لوحــدتها ســوى شــجرة النـــارنج والتـــي تجلـــس فـــي فيئهـــا تحتســـي قهوتهـــا الصــباحية وأنغــام فيــروز تنبعــث مــن المــذياع بجوارهــا وهـي تصـدح (بعدك علـى بـالي، يـا قمـر الحلـوين) وعقـد الياســمين تضــعه بجانبهــا تأخــذها الــدنيا إلـــى البعيــد البعيـد، لا إلـى عتبـة مالـك بـل إلـى أبعـد مـن ذلـك. إلـى نافــذتها الخشــبية ووقــوف مالـــك تحتهـــا يهمـــس لهـــا بكلمـــات الحـــب. فـــي يعـــض الأوقـــات كانـــت تمســـح عبراتهـا وتـنهض وفـي أحيـان أخـرى كانـت العبـرات هـي من تقضي عليها.

هـذا الـروتين هـو حياتهـا كـلّ يـوم، هنـا فـي ظـلّ شـــجرة النــــارنج بجانــــب النــــافورة الصــــغيرة، أصــــدقاؤها (القهــوة وفيــروز)، تجلـــس علـــى كرســـيّ أحمـــر هـــزاز

ويجلس الحزن على كرسي بجوارها، يبادلها النظرات ويمدّ لها يدين كبيرتين ليعانقها فتستسلم في أحضانه، تاركة العنان لدموعها، وحده الحزن من يقف إلى جانبها على الدوام، ويربت على شعرها الطويل لعلّها تغفى بجواره وتنام.

ومع أنّ أيّام فبراير القاسية قصيرة على الدوام إلّا أنّها كان تشعر بثقل أيامه وبطئها. فحين تأوي إلى فراشها تنتزع أصوات الانفجارات الثقيلة من الطبيعة كلّ صوت، وكأنّها ما زالت تعيش في الجبهة، لن تسكت تلك الأصوات بتاتاً، ومع تقدّم الأيام كانت الحرب تهيج أكثر وكأنّها ما شبعت بعد من الضحايا الذين التهمتهم وراهنت على التهام أضعاف أضعافهم. هناك من رفض أن تبتلعه الحرب إلى

دوّامات لن يجد نفسه فيها، فهرب إلى البعيد، لا يدر أيّ مصير يسلك، وهذا ما كانت تخشاه نورة أن تبتلعها الحرب أو تأمرها برحيل لا عودة بعده.

تقف حائرة بعد أن تطمئن على نوم شهد العميق، ليتها كانت طفلة كشهد لا تفهم ما يدور حولها وحين تكبر تنسى ما جرى، وتسأل بشقاء مراهقة ماذا حصل في حقبة الـ ٢٠١١ وما بعدها؟

أسئلة كثيرة تعصف في ذهنها ولا تدر من أين تستمدّ أجوبتها؟ فيما مضى كان مالك هو رجل البيت والمسؤول عنه، والآن هي رجل البيت وأنثاه. هي من يجب عليها اتخاذ قرار مصيري، لا ندم ولا دموع بعده.

هل عليها أن تبقى في دائرة ضيّقة نسجها لها آخرون؟ لا صوت يصل أذنيها سوى انفجارات قذائف

لا تــدر مصــيرها ولا تعــرف هــدفها. تلــك القــذائف أصــبحت بمثابــة روتــين يــومي للجميــع. اســتبدلوها بزقزقــة العصــافير، وحــين تغيــب تلــك الأصــوات فجــأة لمــرضٍ حــلّ بهــا يســألون عنهــا كمــا لــو كانــت صــديقة حميمة وليست عدوّة خبيثة.

أمــا آن لصــوت الرصــاص أن يخــرس قلــيلاً، أمــا آن لتلــك المدفعيّــة أن تصــمت ولــو لحظــة واحــدة، ربّمــا مــرّ فــي ســماء دمشــق عصــفوراً ينشــد الأمــان، أو طفلــة صــغيرة تحتــاج لمــأوى تهــرب إليــه مــن عبــث الظلــم الواقــع عليها..

وحــدها شــجيرة الياســمين مــن كانــت تســتمع لصــرخات نــورة المنبعثــة مــن أعماقهــا. فتواســيها بــبعض وردات بيضــاء علــى طاولتهــا، لتحمــيهنَّ مــن قطــرات دمٍ

ستلوّثهنَّ في مستقبل لن يكون بعيداً، تشمّها وكأنّها تودّع شيئاً لا تعرفه، ماضٍ لن يعود وشيئاً سيأتي، شيء لن تستطيع العودة إليه، وربّما لن تجده إطلاقاً، سيصبح ماض للجميع، وخبر في نشرة أخبار الثامنة والنصف.

فتحت التلفاز لتشاهد أين تنهمر تلك القذائف؟ أو ربّما جاءها خبر ليعلن لها أنّ مالك لم يمت، وكأنّه الوحيد على هذه الأرض ليتركوا الجميع صغاراً وكباراً ويلتفتوا لمالك الذي أضحى رقماً ليس إلا، مالك بشحمه ولحمه لم يدروا بوجوده وهو حيّ كيف يعرفونه بعد موته وهو قد استحال إلى تربة رطبة جذوره تعانق جذور الياسمين. حارسٌ للبيت نائماً على عتبة بابه.

لأنني لاجئة

ربّما تحدّث هذا المذيع الأصلع في آخر نشرته، بأّن هناك مدينة منسيّة خارجة من كتب التاريخ، فيها زقاق طويل ضيّق، في آخره بيت صغير وعلى عتبته شابٌ أسمر طويل بعضلات مفتولة واقفٌ يحمي بيته ، يدافع عن جدرانه المهدمة ببسالة فارس. ولكن الجدران الباقية ستخذله كما خذله أهله حين تركوه وحيداً، فضّلوا درب الهروب على دربٍ يجمعهم معاً، اتخذ كلّ واحد منهم قرارا منفرداً يخصّه وحده، أوروبّا أولاً، لبنان كانت الخيار الثاني، ودمشق هي الخيار الأخير، دمشق النازفة والتي ما زالت تمسك بتلابيبهم تستدرّ عطفهم كي لا يرحلوا، فخذلوها وخذلوا مالك، فخذلته معهم شجيرة الياسمين وجدران ذلك البيت الآيل للسقوط.

لأنني لاجئة

نيـران الحـرب الكثيفـة لـم توحّـد شـملهم بـل فـرّقتهم أكثـر فـأكثر، كـلّ شـخص خلـع عنـه القنـاع ليـرى وجهـه بوضـوح علـى ضـوء مدفعيّـة قديمـة، خلـع بعـدها أقنعـة كثيـرة ومـا زال يخلـع قنـاع تلـو الأخـر. وهنـا ظهـر مـن يكـنّ لـك عـداء دون سـبب بعـدما كـان مـن ضـمن قائمـة الأصـدقاء الـوديين. ظهـر مـن يمـدّ لنـا يـد المسـاعدة بعـدما كـان فـي حياتنـا شـخص لا فائـدة ترجـى منـه، أو رقـمٌ مهمـل فـي دفتـر الهـاتف، تـوالى ظهـور أشـخاص لـم نعـرفهم مـن قبـل ولكـن حملـوا المشـاعل لنـا فأضـاءوا نـور حياتنـا، وأضـاءوا نـور دروبنـا المظلمـة. وقفـوا مـع الحـق لا يحيـدون عنـه، أمسـكوا بأيـدينا ومشـوا معنـا فـي دروب كانــت مظلمــة قبـل أن نلمحهـم، فـإذا هـم النـور الـذي تسـطع منـه أرواحنـا، ورغـم وعـورة الطريـق إلّا أنهـا لـم تمـحَ تلـك الابتسـامة مـن وجـوههم. أغمضـوا

عيــــونهم كــــي يحبســــوا بـــداخلها عبـــرات كـــادت أن تفضـحهم. مـا أروعهـم مـن أنـاسٍ التقينـاهم! قبـل الحـرب لـم يكـن لهـم وجـود، قبـل أن يـأتي مـارس حـاملاً معـه كـل أنـواع العـذاب لـم نكـن نعـرفهم، وبعـد أن اشـتعلت النيـران فـــي كـــلّ مكـــان، وهاجـــت الحـــرب وماجـــت، ظهـــروا مـــن العدم من أمكنة لم نستوعبها بعد.

أيـــن كـــانوا تلـــك المـــدّة مـــن حياتنـــا؟ ومـــاذا كـــانوا يصـنعون قبـل أن يلمحونـا نسـير متعثّـرين فـي حيـاة مـا عـادت لنـا؟ قبـل مـارس لـم نعـرفهم وبعـد مـارس أصـبحوا أصـدقاء لنـا فـي الـدم، الآن هـم أصـدقاء المحـن وإخـوة الحرب.

والعكـس هـو الصـحيح تمامـاً، أظهـرت الحـرب أفئـدة ذوات قلـــوب ســـوداء كلـــون دخّـــان القـــذائف الســـاقطة،

لوّنــت تلــك المــدافع قلــوبهم بالســواد كمــا لوّنــت ســماء المدينــة بــاللون ذاتــه، النــار تأكـل قلــبهم والحقـد ينخـر كبــدهم، الحســد أعمـــى بصـــيرتهم، كــانوا لنــا الحيــاة برمّتهــا وصــاروا كــالموت لنــا، ابتعـدوا كثيـراً وغاصـوا فــي ظلمــات الحــرب حتّــى بتنــا لا نــراهم، فنمــت أشــجار مــن الحــواجز بيننــا سـقوها واعتنــوا بهــا إلــى أن كبــرت، فبـدأوا يكيلـــون الـــتهم لنـــا ويتهموننـــا بالتقصـــير اتجـــاههم. ويتهموننــا بالخيانــة وبكـلّ مــا حــرّم الله، وحــدهم الأنقيـاء ونحن وضعونا في زمرة الشياطين.

_ثــلاث ســنوات مضــت مــن عمــر الحــرب فقــط، مــا زالــت صــغيرة لتوقــع بــين أخ وأخيــه، طــرده مــن منزلــه الوحيـد ليهـرب مـع زوجتـه فـي ليلـة بـاردة إلـى بلـد لـيس ببعيــد، اختـــار لـــه بلـــد عربـــي ليعـــيش بكرامـــة، ولكـــن

وهيهات أن يعثر على كرامة خارج حدود وطنه، ما إن غادر البلاد حتّى سقط منه رداء الكرامة دون أن ينتبه لذلك فخرج من وطنه بلا كرامة تذكر.

_تلك الأم لم تفقد ولداً واحداً بل فقدت ثلاثة من أبناء ها وتركوا لها زوجاتهم وأفواه جائعة تطلب الطعام ولا تراه. بدأت البحث عن عملٍ هي وزوجات أولادها. لم تجد سوى الوقوف تحت جسر الرئيس تشحذ من هذا وذاك، تطلب منهم ورقة من فئة الخمسين ليرة. منهم من يمضي مسرعاً ناظراً إليها بازدراء ومنهم من يتصدّق عليها بالقليل الذي لا يسدّ احتياجات أحدهم.

_ ذاك الرجل الذي رأى كيف العنوسة في بلده بازدياد كبير فأقسم أغلظ الأيمان أن يستر على نصف البنات، وهو راكض يلهث وراء البنات نسي في خضمّ

ذلــك زوجــة فــي البيــت يرعاهــا وانتهــى دورهــا الآن فــي مسلســل حياتــه ليبــدأ جــزء جديــد ولكــن مــن دون أن يكــون لهــا أيّ دور. تمســكت بطــرف سترته الشــتوية ذو اللــون الرمــادي مســتحلفة إيــاه أن يمنحهــا دورا ثانويــا فــي مسلسـله الجديـد، ولكنّـه حلـق لحيتـه، ووضـع كميّـة كبيــرة مــن الجــل" مثبــت الشــعر" علــى رأســه وصــففه بعنايــة وارتــدى أبهــى حلّــة لديــه، وضــع قبــل أن يخــرج مــن عطــره الــرخيص والــذي يبــاع علــى الرصــيف فــي شــارع النصــر، تركهــا تســتحمّ بعبــرات مــن ذلٍ وانكســار، أمّــا هــو فأعجبتــه فكــرة اصــطياد الفتيــات الواحــدة تلــو الأخـرى بكـلام معسـول. لعلّـه ينجـز انجـازه العظـيم فـي الستر عليهن جميعاً.

لأنني لاجئة

تبّـاً للحــرب ومــا خلّفتــه مــن أنــاس كهـؤلاء. وتبّـاً لتلك النفوس التي ظهرت للعيان بوقاحة لا تنس .

لنعــد إلـــى نـــورة ومـــا حـــلّ بهـــا إذ بـــدأ إخوتهـــا يقيّـدونها بقيـود لا ترغبهـا، كبّلوهـا بحـرب لا دخـل لهـا فيهـا _ مـن هـذا البـاب جاؤوهـا _ فدمشـق لـم تعـد تلـك المدينــة الآمنــة فهـــي الآن تعـــجّ بالقتلـــة والمجـــرمين. منعوهـا مـن فـتح البـاب لأيّ بشـريّ ومـن الخـروج دون رفقــة أحــدهم، حتــى الهــواء لــو باســتطاعتهم لحبســوه عنها.

قــررت أن تنجــو بنفســها مــن جــوّ كهــذا كــادت أن تختنـق بـه، لـولا رحمـة ربّهـا وشـجيرة الياسـمين صـديقتها في أحزانها.

لأنني لاجئة

جلست على الكرسي تأرجح قدمها وفي يدها الهاتف، أرادت أن تبثّ همومها إلى صديقة عمرها وتبكيان معاً كالعادة حتى تضحكان في النهاية، ولكن جاءها صوت والدة صديقتها من البعيد، جاءها صدى الصوت أوّلاً لينذرها بفاجعة ستسمعها للتو إن أصغت السمع قليلاً لتلك المرأة الخمسينية، صوت المرأة وهي على الرصيف الآخر من حياة لم تكن لهم حياة بل كان الموت متمثّلاً بشبح الحياة، فاجئها صوت المرأة برحيل صديقتها إلى عالمٍ أكثر أمان، سألتها بعفويّة طفلة كيف؟ وهل في هذا البلد موت جديد لم تعرفه لتسأل سؤالاً كهذا؟ الموت هو الموت ولكن تنوّعت أدواته، فبينما تلك الفتاة تعبر الشارع لتذهب إلى جامعتها، فاجأتها ضربة قنّاص في رقبتها لترديها على رصيف الحياة، لم يتسنَّ لها الوقت لتعبر إلى

رصيف الأمان، بقيت في وسط الشارع، جسدها واقع بين رصيفين من أرصفة الحياة _ الحرب والأمان ـــ ذاك الصيّاد الواقف على أعلى بناء في المدينة، لم يكن يعرفها بتاتاً، ولم يكن يعرف من تكون ليرديها جثّة دون أن يرفّ له جفن، لم تكن من أقربائه ولا حبيبته، لم تكن ابنة الجيران ولا من أعدائه، كانت ابنة البلد الذي ولد فيها، ربّما كان يعرفها ولكن ارتفاع البناء الشاهق حال بينها وبين رؤيتها. ربّما رائحة دمها استهوته فأراد أن يريقه مع علمه أن تلك الرائحة لن تصله. أيعقل أن تطغى رائحة دمها على رائحة الياسمين الفوّاحة من البيوت المجاورة؟ تلك الشجيرات ما زالت نقيّة كالثلج في بياضها، ألم تخبر ذاك القناص المتعجرف أنّ شذاها أروع؟ لماذا لم يشمه فيترك الدماء دون أن يسفكها؟

لأنني لاجئة

حين صوّب فوهة بندقيته على رقبتها بماذا كان يفكّر؟ وكيف كان يفكّر؟ هل هو حاقدٌ على النساء جميعهنَّ ليرديها على قارعة الطريق جسد بلا حراك؟ ومن حولها يشاهدون ويتحسّرون، ولكن لا يملك أحدهم الشجاعة الكافية لسحبها إلى جانب من جوانب الحياة، الكلّ يعرف إن حاول سحبها سينام بجوارها جثّة جديدة وتتزايد الأرقام بأسماء الجثث وليس بأسماء أصحابها.(جثث مجهولة). وتمرّ الساعات والأيّام، والجثث تتراكم فوق بعضها كركام الحرب في ذروتها الأخيرة. والكل لا يجرؤ على النظر إلى أعلى البناء.

بكت صديقتها بأقل مما بكت مالك. في كلّ مرّة يموت لها أحد في هذا الوطن تبكيه بأقل ليصبح

لأنني لاجئة

المـوت عـادة فـي وطنهـا . والحيـاة هـي الاسـتهجاء بعينـه. تقلّ عبراتها يومـاً بعد آخر ليأتي يومـاً يصـبح الـدمع فـي مقلتيهـا شـحيحاً ولا يلبّـي طلبهـا فـي الانسكاب على شيء بات من روتين الحياة وقسوتها.

أدركـت نـورة أخيـراً أنّ الحيـاة هنـا باتـت لا تطـاق. بـات مستحيل العيش في مكـان يعتبـر المـوت عـادة مـن عاداتـه فالقتـل أضـحى مـن مسـكرات الحيـاة. سـتهرب إلـى مكـان أكثـر أمنـاً ودفئـاً. إلـى مكـان لا تصـلها تلـك الأصـوات باسـتثناء كـوابيس منتصـف الليـل. تعـرف أنّهـا سـتهاجمها حينـاً وستسـكت كمـا لـم تسـكت مـن قبـل. ربّمـا ستسـتيقظ فزعـة. ليلـة بعـد أخـرى إلـى أن تصـبح تلـك الكـوابيس مـن عـادات نومهـا، كمـا المـوت مـن عـادات بلادهـا. سـتهرب إلـى مكـانٍ لـن تصـل إلـى أذنيهـا

أزيـز الرصـاص مصـحوباً بآهـات مـن وجـع. إلـى مكـان تعيش فيه شهد، وتكبر فيه دون أن تخاف.

ولكــن قــرارٍ كهــذا ســيكون فــي ســريّة تامـــة عــن أخوتهــا، ســتخبئه فــي ذهنهــا دون أن تــدع أحــد يلمحــه، ســيمنعونها مــن الســفر لوحــدها، ولــن يســافروا معهــا. سيسـجنوها بعـد أن يجرّدوهـا مـن أوراقهـا كـي لا تغـافلهم وتلهث وراء الأمان.

خرجــت ظهــر ذاك اليــوم فــي فبرايــر تحــت ســماء باكيــة، بعـد أن تيقّنـت خـروج إخوتهـا ولا مجـال لعـودتهم بــاكراً. خرجــت لتــودّع صــديقة لهــا، ستســبقها إلــى بــرّ الأمــان، كــم اشــتاقت لحنــان رفيقــة عمرهــا فقــد ماثــل حنانها ورأفتها حنان مالك ورأفته.

لأنني لاجئة

مشت في دروب دمشق الضيّقة والواسعة، كانت دمشق أسطورة مختلفة عن أساطير الحرب، دمشق النقيّة ما زالت تقاوم الحرب، رافضة إطفاء نورها. لن تغرق في الظلام كباقي المدن، ستصمد وتقاوم ولن تفنى، ستبقى كما كانت تزرع البسمة على شفاه الجميع وتضحكهم على الدوام. هي من احتضنت أبناء سورية ، من جميع محافظاتها هرعوا إلى حضنها الكبير.

مشت وكأنّها لأول مرّة تمشي في ربوعها، صلّت في رحاب المسجد الأمويّ الكبير، وخرجت لتطعم حماماته من يدها، وفي حضنها شهد الصغير ضاحكة لا تعرف شيئاً عن خوف أمّها. مشت في سوق الحميدية وهي تودّعه بنظرات مليئة بعبرات رافضة

الانهمار. كحزن دمشق حين يغادرها أحد من أهلها كانت حزينة والسماء ذات المطر الخفيف كانت تشاركهم لوعة الحزن والأسى. نزلت في ذاك النفق الصغير وخرجت من جهته المقابلة. مشت في شارع النصر الطويل، تراقب المارة بعيون فضولية، تريد أن تفهم كنه نظراتهم، هل هي خوف أم عشق دمشق تغلغل في دمائهم وأرادوا أن يشيعوا حبهم لها مثلها؟ وكأنّها تريد أن يحتفظ ذهنها بصورة دمشق النقية الصافية من حرب ملوّثة، لا تريد أن تسرّع من هذه اللحظة الرومانسية التي فاقت حب كل صبية لحبيبها. ذاك الحب يذبل وحب الأوطان ينمو.

هذه دمشق ومن لا يعشقها؟ ففي قلبها تنشد البلابل وعلى جدرانها يسبّح الياسمين، وفي سماءها

تسبح سحبها البيضاء تنذر بالأمل والخير، أيعقل أن يرتوي أحدهم من مياه بردى ولا يصبح لدمشق عاشقاً؟ أيعقل أن يُستمع لتغريد بلابلها ولا يصبح لدمشق حبيباً؟ أيعقل أن تفوح من حواليه عبير الياسمين وشذا الزيزفون ولا يصبح مهوساً بدمشق ؟

وصلت إلى منطقة الحلبوني فعانقتها ياسمينتها من وراء جدرانها الحجرية، نظرت إلى أعلاها رأت شجيرات الياسمين مصطفّة وكأنّها تحييها. أخفضت نظرها إلى الأرض رافضة سماع بوح الياسمين عن أمان وحبّ دمشق. فهي هكذا تبكي وتئنّ حين يغادر ابن من أبناءها إلى مكان بعيد، تدرك تماماً بُعده واستحالة عودته. من يتقدّم خطوة إلى الأمام لن يرجع إلى الخلف، فكيف بمن تقدّم آلاف الخطوات

ومحا الزمن آثار خطواته كي لا يعود إلى حضن كان فيما مضى ملاذه وأمنه.

وصلت إلى جسر الرئيس، وقفت قبالة قاسيون تودّعه ومن تحتها يسير بردى رقراقاً تلتمع مياهه بوهج شمس فبراير.

ارحميها يا شام ولا تكوني قاسية عليها أنتِ أيضاً، أنتِ أمّها حين فقدت أمّها، أنتِ مالكها حين فقدت مالكاً، كوني لها سنداً وعوناً واحضنيها إن فكّرت يوماً بمغادرتك.

وصلت إلى البرامكة، وقفت في مدخل مسجد الرازي تنتظر صديقة لن تأتي، مرّت دقائق دون أن يظهر لها أثر، خرجت تنتظرها خارج المسجد، سارت قليلاً لتقف أمام مبنى سانا (وكالة الأنباء السوريّة)

وصـديقتها لـم تـأت. سـارت فـي الـدرب المعـاكس وصـلت إلــى كليّــة التجــارة، ومــرّت ســاعة واختفــى كــل أثــر لصـديقتها مـن الحيـاة. ولكنّهـا أدركـت لاحقـاً أن الوقـت لـم يحـن بعـد لـوداع الصـداقة، شـوقها الجـارف لدمشـق جعلهـا تخـرج بـاكراً لتـودّع وطنـاً حانيـاً أوّلاً، لـم تنظـر إلـى تلــك الســاعة القديمــة المهترئــة التــي يمشــي عقربهــا الكبير خطوة إلى الأمام وخطوات كثيرة إلى الخلف.

وفجأة!

انفجــار هائــل أبكــى ياســمينها، وأفــزع قططهــا، ارتجفـت جـدرانها، هربـت العصـافير إلـى البعيـد، مـن أيـن مصـدره؟ لا أحـد يعـرف الجـواب، سـوى ارتجـاف الأرض مـن تحـت أقـدامهم. الكـلّ وقـف حـائراً، ينظـر إلـى الـدخان المتصـاعد مـن البعيـد دون أن يسـتطع أحـد مـنهم تحديـد

مكـان الانفجـار. والكـلّ يـدرك تمامـاً بأنـه ربمـا يكـون هـو ضحيّة جديدة في وقت مجهول للجميع.

ذاك الشـخص الإرهـابي لا يعـرف صـديقتها بتاتـاً، مثلـه مثـل ذاك القنـاص، ولكنـه أقسـم أن لـن يرحـل عـن هـذه الـدنيا دون أن يأخـذ معـه روح تلـك الفتـاة البريئـة كهديّـة لـه، الـتحم دمهـا النقـي بدمـه الفاسـد، وجهـان لعملـة معاكسـة. التحمـت دمـاء الخيـر بـدماء الشـر، وانسـكبت أنهـار الـدماء تـروي شـجيرات الياسـمين نيابـة عـن بـردى، سـارت دمـاؤهم كـالنهر رقراقـة فـي شـوارع دمشـق، والكـل ينظـر إليهـا بـدموع تظهـر تـارة وتختفـي تـارة أخـرى. عشـرون شـهيداً سـافرت روحهـم إلـى الأعلـى فيمـا لـم يبـقَ مـن أجسـادهم مـا يخبـر الجميـع أنّهـم كـانوا هنا، على أرضنا يعيشون، ومن هواءها يتنفّسون.

من هو هذا الذي سوّلت له نفسه قتل العشرات دون أن يرفّ له جفن؟ ومع أنّ جسده كان البادئ في لعبته القذرة إلّا أنه لم يغفر لطفلة تلعب في الشارع فيبعد عنها كي لا ترحل معه. لم يعجبه أنّ هؤلاء يعيشون في سعادة وهناء بينما الرقّة تغرق في الظلام، قرر نفيهم من الوطن ليبقوا ذاكرة من ذكراه ستنسى في وقت ليس ببعيد، نسي أنّ الوطن لا ينفي أبناءه، بل هو يستعيدهم في كلّ لحظة ويخلّدهم في ذاكرة الوطن، سيصبحون في عناوين الأخبار أرقاماً تضيء شاشة التلفاز على مدار أربع وعشرون ساعة.

صعدت أرواحهم الطاهرة إلى السماء، وتحوّلت إلى نجومٍ تلتمع في ليل دمشق القصير الذي بات دافئاً رغم صقيع فبراير.

وخلفوا خلفهم زوجات ثكالى يندبن ليل نهار يشدنّ شعرهن على فقدان جسر بيوتهن وأحد أركانه الأساسية. خلّفوا وراءهم أطفالٍ يتامى لم يعرفوا بعد حنان الأب. تركوا أمهات لا معيل لهنّ، وأخوات يبكين ويرثين الحنان والدفء والأمان.

أدركت أنّ صديقتها أخلفت بوعدها لها كما أخلفه مالك من قبل. لكن ما ذنب الاثنان إن كان الموت هو من يسرق الوعود ويحنث بالعهود، غادرت صديقتها دمشق قبل نورة وقبل وداعها حتّى.

جدران دمشق ظلّت طوال الليل تبكي من رحلوا، تبكي صديقة عمرها التي قالت لها يوماً كلاماً لم يمح من ذاكرة نورة (نحن فقط من ظلمتنا الحرب... نحن الذين نُتّهم من صانعي الثورة بالعمالة والخيانة... ونُتّهم من الطرف الآخر بأننا مع الثوّار لمجرّد أن كتب على هويّتنا وطن صغير) كان صدى صوتها يأتيها من البعيد... ربّما من السماء السابعة، وربّما من أعماق ذاكرتها.

الصباح كان أجمل بكثيرٍ مما رسمته نورة في ذهنها، زُرعت شجيرات من الياسمين على أرواح من رحلوا، ولبست دمشق ثوبها الأبيض الأنيق وكأنها على موعد مع الفرح. عرس دمشق دعي إليه كلّ الأطفال، وبدأ التراشق واللعب في الثلج إلى وقت

متـأخّر، غسـل الـثلج أحقـاد مـن أرادوا الشـرّ بوطننـا، ولـن يقـدروا علـى نـزع الابتسـامة منهـا. غسـل الـثلج الـدماء الحمـراء ودمـاء ذاك القاتـل الـذي لـم تُعـرف هويّتـه بعـد، لوّحـت دمشـق براياتهـا البيضـاء فـوق ذرا قاسيون وجبل الشـيخ. فـلا قـوّة تعلـو فـوق قـوّة دمشـق، هـا هـي نهضـت مـن احتضـارها لـتعلن للجميـع (ليسـت دمشـق مـن تمـوت) سـتبقى شـامخة متمثّلـة بقاسـيونها، صـامدة كقلعتهـا، فوّاحـة كياسـمينها، بريئـة كأطفالهـا، نقيّـة بثلجهـا الأبـيض، غامضـة كأزقّتهـا القديمـة الضـيّقة، فرحـة كأسـواقها، فمـن راهـن علـى مـوت دمشـق سيكون الخاسر الأكبر.

تبـاً للحـرب مـا أقسـاها!... تبـاً لنيرانهـا وهـي تسـتعر بـداخل أرضـنا، ليـت السـماء فتحـت أبوابهـا ليصـعد

إليهـا الأطفـال ريثمـا تنتهـي الحـرب القـذرة، وحينمـا ينتهـي الكبـار مـن اللعـب تعـود الأطفـال إلـى أمهـاتهم دون أن يعرفوا ماذا حصل في البلد؟

مشـت نـورة فـي أحيـاء الشـام العتيقـة واختبـأت بـين أزقتهـا لتحميهـا جـدران دمشـق الأثريـة. خائفـة مـن مصـيبة سـتحدث، مـن قنّـاص اتخـذ البندقيّـة لعبـة لـه، يلعـب بهـا ويـراهن القنـاص الآخـر مـن منهمـا الـرابح الأكبـر بقتـل عـدد أكثـر، هاربـة مـن إنسـان لا تعرفـه ولا يعرفهـا، لا لـيس إنسـاناً. هـو وحـش بصـفة إنسـان، هـو وحـشٍ قـرر قتـل عـدد أكبـر مـن النـاس ليفـوز بمأدبـة مـع الرسـولﷺ ومـع أنّ مصـيره النـار إلّا إن اعتقـاده السـائد جعلـه يـراهن علـى بقعـة أكبـر تحتـوي أشـخاص كثـر كالمساجد، أو موقف الحافلات، أو الأسواق الشعبية.

لأنني لاجئة

دلفت إلى البيت وفي النفس اكتئاب لا ينجلي، حمدت ربّها فإخوتها لم يعودوا بعد، وضعت شهد في سريرها، ووضبت ملابسها في حقيبة وملابس شهد في حقيبة صغيرة. سرقت ياسمينة صغيرة من الشجيرة الباسمة وزيّنت بها شعر طفلتها وهي نائمة كملاك صغير. الآن تستطيع احتضان شجيرة الياسمين والبكاء في فيئها، ولكن إن رحلت من ستعانق وتحت فيء أيّ شجرة ستبكي؟ إلى من تشتكي غربتها وقسوة حياتها؟ وهي بعيدة كلّ البعد عن الأموي وبردى والغوطة. لن تدع الحرب تفعل بها ما فعلت بمالك وصديقتها، لن تعيش رعباً ضخماً لا تستطيع تحمّله، فالحرب لم تخلق لها ولن تتعوّد عليها بتاتاً، نار الحرب لها ناسها، هم من اعتادوا اللعب بها وإشعالها متى أرادوا ورغبوا، فلن تكون لعبة يلعبون

بهـا كيفمـا يشـاؤون وحـين ينتهـي دورهـا يرسـلونها دون إراداتهـا إلـى عـالمٍ آخـر، لكـنّ هـذا العـالم الـذي ترفضـه بعناد هو أرحم عليها من ويلات الحرب ونيرانها.

لكــنّ... دمشــق أصــيلة كمــا عرفتهــا، ســتعانق أبناءهــا حــين يعــودون وكــأنّهم مــا غادروهــا يومــاً. ستمســح عبـرات أثقلتهـا الغربـة علـى كـاهلهم وستمســح شعرهم كحنان أم وليدها خائف من كابوس مفزع.

نامـت ليلتهـا تلـك وقـد قـررت الهـروب ومـا عليهـا سـوى تنفيـذ خطّتهـا فـي الصـباح البـاكر بعـد رحيـل إخوتها إلى عملهم.

فـي الصـباح كانـت شـمس فبرايـر قـد سـطعت فـي سـماء دمشـق كـي تـذيب الـثلج وتشـعر الجميـع بالـدفء والمحبّــة. وبعــد رحيــل إخوتهــا جلســت علــى كرســيّها

الهزاز بيدها فنجان من القهوة وبيدها الأخرى تحنو على وريقات الياسمين الخضراء وصوت فيروز يصدح (قرأت مجدك في قلبي وفي الكتب، شآم... ما المجد؟ أنتِ المجد لم يغب) بكت وذرفت العبرات على مالك وصديقتها وعلى وطنٍ يحتضر، بكت دمشق قبل وداعها، بكت قراراً ستأخذه مرغمة وستندم عليه لاحقاً كما قال لها مالك من قبل.

إذاً ستودّع دمشق على طريقتها وتحتفظ بذكريات كثيرة عن آخر يوم لها تحت سماءها. كتبت رسالة إلى أخوتها تخبرهم فيها عزمها على السفر إلى البعيد حيث الأمان. وفي حوزتها ما يكفيها من المال للولوج في رحلة محفوفة المخاطر.

لأنني لاجئة

نظرت إلى البيت بأكمله وأغمضت عينيها ودارت دورة كاملة في باحته الواسعة، أرادت أن تحتفظ بتفاصيله وتخبّأها في مكان عميق في ذاكرتها كي لا تضيع مع الأيّام، في كلّ منزل تعيشه تعلّق قلبها بتفاصيل شجيرة الياسمين، والبحرة الدائرية وشجرة النارنج، وعند الرحيل يبكي قلبها قبل عينيها، وتبكي ياسمينتها عليها.

حملت الحقيبتين ووضعت شهد في حمالة علّقتها في رقبتها جيّداً وأغلقتها بإحكام خلف ظهرها. خرجت ببطء من بيت كان لها فيه ذكريات صغيرة ستحنّ لها يوماً. لم تدعها تكبر خنقتها وأبقتها صغيرة الحجم حتّى تستعيدها في كلّ حين.

لأنني لاجئة

رحلت بعد أن اكتشفت أن الزمان ليس بزمانها،والمكان ليس بمكانها، وكلّ الأشياء حولها لم تعد تشبهها في شيء... وحتّى مدن أحلامها ما عادت تتسع لها. لم تتصل بصديقاتها كي تودّعهنّ، خافت أن يرحلنَ قبلها إلى عالم ما زال فاتحٌ أبوابه للجميع دون استثناء. بعثت لهنّ برسالة صغيرة مختصرة، كتبت فيها (أنا هاربة) لم تضيع وقتها بالبحث في أحشاء اللغة لانتقاء كلمات الحبّ أو الاعتذار أو الوداع، فكل الكلمات التي تولد لحظة الفراق إنما هي مجرد محاولات فاشلة لتبرير وتفسير هروبها.

أهدتها شامها رصيف صغير تجلس عليه فتودّعها وداعا كبيراً يليق بها. فجاءتها ذكرى مالك

تعتصرها من رصيف الحياة وتأخذها إلى عوالم مجهولة تسبح فيها بآهات عميقة يخرجها القلب وتبكيها العين. كم تمنت أن ترى وجهه في ساعة وداعها الأخيرة، وكم تمنت البكاء على صدره؟ ولكن القدر حال دون أمنياتها، ورحل نحو المستحيل، ترقّبت قدومه لحظة بلحظة، لكن هيهات أن يعود. اللحظات صارت أسابيع ومالك لن يعود. غادر شواطئ قلبها وأحرق كل سفنها وتركها وسط الأحزان لتغرق وتغرق حتّى الثمالة دون أن ترى يديه تنتشلها من بوتقة الحرب والأحزان.

ذهب مالك إذاً... وأدركت نورة أخيراً هذا... ظلت تتذكره وتتذكر لحظاتها الجميلة معه تفاصيل وجهه ابتسامته العذبة وصفاء قلبه ... تتذكره وتتذكره ... لا

لأنني لاجئة

تريـد أن تنسـاه لقـد رحلـت ابتسـامتها معـه حـين رحـل، لملم معه أحلى اللحظات وذهب إلى مثواه الأخير دون أن يأبـه بأحوالهـا، ولـم تجـد مـن يلملـم شـتاتها الـذي تمـزق بعـد فراقـه. سرق قلبهـا وأحلـى أيامهـا دون إذنهـا، ظلـت تحلـم بطيفـه، ذهبـت معـه إشـراقة حياتهـا وروحها. فمن يرجعها الآن؟؟

وبـدأت رحلتهـا نحـو الشـمال مـع طفلتهـا الصـغيرة دون مالـــك،، رحلـــة محفوفـــة بالمخـــاطر والآلام. ســتتجرعها بصــبرٍ وســلوان عســى أن تكــون النهايــة مفرحـــة ولكـــن هيهـــات أن يعقـــد الفـــرح خـــارج أرض الوطن.

* * * * * *

لأنني لاجئة

- ٣ -

توجّهت الحافلة الكبيرة باتجاه الشمال. جلست نورة بمحاذاة النافذة لتودّع دمشق بنظراتها الحانية لآخر مرّة، شوارعها العريضة وساحاتها الواسعة، حدائقها وشعبها، أمطارها وسماءها السوداء فما زال هنالك أمل بوقف الحرب. أهي تبكي على نورة؟ تكاثف مطرها في آخر ليلة في فبراير وتحوّلت طرقاتها إلى أودية سيلية، غسلت السيول الأرض وأزالت أحقاد بشرٍ لم يشبهوا البشر في شيء. سماء

لأنني لاجئة

دمشق كالحة السواد. أمطارها كثيفة جدّاً وكأنّ السماء غاضبة بشكلٍ كبير. هي عبرات من السماء تسكبها كلّما رحل لها ابن من أبنائها . كيف لا؟ وفي تلك اللحظة توجّهت خمس حافلات كبيرة إلى الشمال وفي كلّ حافلة ما يقارب الثلاثون راكباً. لن يعودوا مطلقاً، سيختفون في جبال إدلب، سيبتلعهم البحر، سيضيعون في غابات صربيا، والناجون منهم لن يتذكّروا الوطن الذي خرجوا منه ذات ليلة شتويّة، ستحفر في ذاكرتهم دروب الظلم الطويلة والشاقة والمحفوفة بالمخاطر.

أغمضت عينيها لتحلم بمستقبل زاهر في تلك البلاد، مستقبل ستصنعه برغد وتنعم فيه بالأمان. تراءى لها قاسيون من خلف تلك البيوت الصغيرة

فاتحا لها ذراعيه لاستقبالها كأبٍ حنون عاد ابنه من الحرب لتوّه. بردى بابتسامته الوديعة، دمشق بحلّتها البيضاء صامدة وفي الوقت ذاته مكسورة الفؤاد. ما زالت واقفة تنتظر أبناء لها غادروها يوماً ووعدوها بالعودة قريباً، جاءت الأيام ورحلت أيام ولم يوفِ أحد بوعدٍ قد قطعه قبل عبوره الأسلاك الشائكة.

كانت الحافلة تقف على الحواجز المتوضّعة على الطرق حيناً، وتكمل طريقها بصمت حيناً آخر، لم يكن يشقّ الصمت سوى صوت فيروز كعادته يصدح من كلّ حافلة ومن كلّ بيت دمشقي. (أحب دمشق هوايا الأرقا... أحب جوار بلادي) وكأنها تسخر من هروبهم الغير متوقّع، أو كأنّها تحثّهم على العودة إلى

البلـد التـي سـتبقى فاتحـة لهـم ذراعيهـا منتظـرة أن يعقـد الفرح داخل حدودها

خلّفـت الحافلـة ليـل دمشـق ورائهـا باكيـاً، وشـقّت دروب الصـحراء الواسـعة. خلّفـت حمـص خلفهـا وقلعتهـا الصـامدة وقـد سـمعتها تهمـس لهـا بـالعودة إلـى حضـنها، إن دمشـق خـذلتها حمـص لـن تخـذلها، ولكنّهـا صـمّت آذانهـا عـن سـماع نـداء الـوطن لهـا بعـودة لا تتمنّاهـا ولا تطيـب لهـا. ودّعـت حمـاه بعينيهـا الـدامعتين، ودعـت العاصـي ونـواعيره بقلـب مثقـل بحنـين لم يبدأ بعد.

وصـلت إلـى إدلـب بعـد ليـل طويـل ونهـار أطـول. وقفـت الحافلـة عنـد أوّل حـاجز فـي ادلـب الخضـراء. لـم تعـرف نـورة مـن هـؤلاء؟ ثيـابهم سـوداء ولحيـتهم طويلـة،

كانـــت تـــراهم فـــي التلفـــاز وهـــم يقتلـــون بعضـــهم دون رحمـــة، أيعقـــل أن يكـــون مصـــيرها المـــوت هنـــا دون أن تصـــل إلـــى بـــرّ الأمـــان؟ لكـــن ذاك الشـــاب النحيـــف ذو اللحيـــة الطويلـــة أخـــرس صـــوتاً خـــرج مـــن أعماقهـــا يبكـــي ويشـــكو. نظـــر إلـــى مـــن فـــي الحافلـــة نظـــرات متفحّصـــة، ولكـــن نبـــرة صـــوته العنيفـــة كانـــت عاليـــة جـــدّاً لـــتفهم نـــورة ما يقول. صاح بملء فيه والزبد يتطاير من فمه:

- (ارتـــدين النقـــاب... فوجـــوهكنَّ عـــورة ولا يجـــوز لغريب رؤيتها).

جميـــع النســـوة امتـــثلن لمـــا أمـــرهنّ بـــه علـــى الفـــور خشـــية إلحـــاق عقـــاب ألـــيم مـــن شـــخص لا يعـــرف الرحمـــة، أمّـــا نـــورة فقـــد أحضـــرت واحـــداً معهـــا ابتاعتـــه مـــن ســـوق الحميديـــة حـــين ودّعـــت دمشـــق فـــي ذلـــك اليـــوم المشـــؤوم،

ارتدته على الفور ولكنّها لم تكن تعرف كيف يرتدى فهي لم تر نقاباً من قبل، لكن السيّدة التي بجوارها مدّت لها يد العون وساعدتها في ارتداءه.

تملّك الذعر نورة، فهذا الحاجز الأوّل في تلك المدينة. ماذا تخبّئ لها الحواجز الأخرى؟

ماذا تخبئين لنورة يا إدلب الخضراء؟

عند وصولها إلى منطقة لا تعرفها، فهي لم تزر إدلب من قبل، وكلّ شيء بالنسبة لها غريب. أنزلوها من السيّارة رجلين أحدهم قد تجاوز الخمسين من العمر وابنه قد تجاوز الثلاثين، ركبت معهم في سيارتهم ذات الدفع الرباعي دون أن تسألهم إلى أين؟ ففي نظرها أنّ جميع البشر ملائكة، إلى الآن لم تصادف شياطين البشر. مشت معهم وكأنّها تحت

تـأثير مخـدّر، كانــت فكـرة الهـروب قـد غلّفـت عقلهـا بأغلفـة مـن الأوهـام والسـعادة هنـاك. دار الأب وجهـه إليهـا وبـدأ يحـدّثها عـن انطلاقتهـا الجديـدة ورحلتهـا الجديـدة، صـوّر لهـا الطريـق سـهلا وسـريعاً. عشـر دقـائق وتكـون فـي تركيـا، اليـوم سـتنام هنـاك، لا يوجـد مجـال للشـك إطلاقـاً. وصـل إلـى منطقـة خربـة الجـوز وهـي منطقـة حدوديـة. نزلـت مـن السـيّارة وسـارت معـه بهـدوء إلـى منـزل قـروي يتـألّف مـن غرفـة واحـدة ولكنّهـا كبيـرة، طلـب منهـا البقـاء علـى أن تكـون فـي أتـمّ الجاهزية لحين موعد الانطلاق.

أغلـق البـاب خلفـه وغـادر، وضـعت شـهد علـى الأرض، حمـدت ربّهـا كونهـا طفلـة هادئـة، لا تبـك إلا إذا جاعـت أو لتغيير حفاضـها مـن البلـل. جلسـت علـى

منصّـة مـن الطـوب، وانهالـت عليهـا الأفكـار دفعـة واحـدة لترهق نورة أكثر فأكثر.

أيّ مصـير ينتظـركِ يـا نـورة فـي مدينـة لـم تـرأف بأبنائها؟ فكيف أنتِ الغريبة عنها؟

أعـدّت زجاجـة حليـب لشـهد فـي حـال اسـتيقاظها. ولكـن مـا إن انتهـت نـورة مـن أعـدادها حتـى اسـتيقظت جائعـة. وضـعت زجاجـة الحليـب فـي فمهـا. وانهالـت عليهـا تلـك الصـغيرة كلبـوة شرسـة إلـى أن أفرغـت مـا فيهـا فـي معـدتها الصـغيرة، وبـدأت تلعـب بأصـابع نـورة تـارة وتـارة أخـرى بـأزرار قميصـها الطويـل. اكتفـت نـورة بابتسـامة علـى وجههـا قـد رسـمتها لشـهد، لـم تلعـب معهـا كمـا كانـت مـن قبـل، فقلبهـا بـات لا يصـلح للعـب

مـع الصـغار، الحـرب لوّثتـه وأحرقتـه بنيرانهـا. قلبهـا هـرم وتجاوز عمرها بكثير.

نامـت نـورة محتضـنة صـغيرتها بقـوّة خائفـة عليهـا من مستقبل لن تجد الأمان فيه.

سـمعت طرقـات عنيفـة علـى البـاب، كـان ذلـك فـي تمـام السـاعة الثالثـة فجـراً. نهضـت فزعـة وعينهـا اليسـرى نصـف مغلقـة، فتحـت البـاب الحديـدي ذواللـون الأسـود، ليطـلّ عليهـا الرجـل الثلاثينـي ويخبرهـا أن تـأتي معـه علـى الفـور، فـالجميع ينتظرهـا هنـاك فـي شـارع آخـر وفـي بيـت آخـر. ربطـت حـذائها ووضـعت حقيبتهـا علـى ظهرهـا ووضـعت طفلتهـا فـي حمالتهـا ومشـت معـه بعد أن أغلقت الباب وراءها.

قادهـا بسـيارته إلـى ذاك البيـت الكبيـر، وهنـاك كانـت سـيّارة هونـداي واقفـة، والجميـع علـى متنهـا بانتظارهـا. ركبـت معهـم بسـرعة. ومشـت السـيّارة بسـرعة عجيبـة إلـى مكـان عجيـب وغريـب. لـم يكـن معهـا فـي هـذه الرحلـة أبنـاء وطنهـا بـل كـانوا مـن العـراق. لوهلـة أحسّـت حالهـا غريبـة فـي أرضٍ غريبـة، فـي وطـنٍ مـا زالـت تتنفّسـه ويتنفسـها. ومـع ذلـك أحاطوهـا بحـبّهم ورعـايتهم. وجـدت معهـم الصـبر والسـلوان ولـم تجـده فـي أبناء جلدتها.

أتـراه سـيذكرها الـوطن؟ أم سينسـاها؟ ومـع الأيـام سيُنسـى اسـمها لتصـبح مجـرّد رقـم فـي الغربـة وفـي الـوطن حتّـى، وهـذا مـا تخشـاه نـورة أن تصـبح رقمـا وتـنطمس هويّتهـا دون أن يعرفهـا أحـد. لهـا كيـان

مستقل عن أيّ كيان آخر، لها اسم معرّف يناديها الجميع به. بكت حين صار مالك رقما من الأرقام، بكت لأنهم جرّدوه من وطنه وجرّدوه من اسمه لم يمنحوه قبراً منفرداً حتى لتبكيه حين تعود. ولكنها نسيت أنها ستغدو رقم بمجرّد أن تصبح لاجئة ويجرّدونها من كل شيء حتى من انتماءها وعروبيتها وهويّتها.

سارت السيّارة على مهل حين وصلت بين الجبال، تصعد تارة وتهبط تارة أخرى، وكان صندوق السيارة مليء بالركّاب من رجال ونساء وأطفال التوّاقون للهرب والنجاة بأنفسهم من جحيم داعش، والولوج إلى عالم الأمان.

وصلت السيّارة إلى جبلٍ كبير في منطقة خربة الجوز، ترجّلوا جميعهم منها. كان على الشخص المسؤول عنهم ويدعى (الدليل) السير أولاً باتجاه الحدود برفقته شابين أو ثلاث وتكثر أعدادهم إذا كانت المجموعة كبيرة. أعطوا التعليمات المناسبة وأمروهم بوجوب تنفيذها بحذافيرها:

- على النساء إعطاء دواء للأطفال كي يناموا طوال الرحلة. بكاء الأطفال ممنوع منعاً باتاً كي لا يفتضح أمرنا ويكتشفنا حرس الحدود.

حتّى وإن سقتها جرعة كبيرة وماتت الصغيرة لا يهمّهم بتاتاً. ما يهمهم هو ألّا يفتضح أمرهم بسبب طفلة صغيرة.

ساروا كأنّهم لصوص الليل... يمشون وراء بعضهم كالخواريف ببطء وهدوء، خشية انكسار غصن تحت قدم أحدهم فينتبه حرس الحدود، هذا ما كانوا يخشونه ويرجون من الله أن تتم عملية تهريبهم دون علم من الجيش القابع في أعالي الجبال.

تعبت نورة من سيرها المتواصل، لأنها لأوّل مرّة تسير على جبلٍ كهذا، لم يأبه أحد من (الدلّيلة) لها ولندائها لهم بالتوقّف قليلاً، صعدوا جبالاً صعبة الصعود ونزلوا وديان مليئة بالحفر. استراحوا أخيراً في أعلى الجبل،

– يحظر الكلام إلا همساً أو باستعمال لغة الإشارة. يُنع استعمال الهاتف ويجب إطفاءه بالكامل

كي لا يصدر صوتاً أو حتى نوراً خفيفاً. حتى السيجارة ممنوع إشعالها.

كانت تلك الرحلة لها هي الأقسى لأنّها الأولى، كان مارس قاسياً عليهم ولم يرحمهم وأطفالهم، وازدادت قسوته حدة فاقت قسوة الحرب وأزيز الرصاص الذي كان يصلها خفيفاً كقرقعة السيوف. حاصرهم البرد من جميع الاتجاهات ولا مفرّ منه لطلب الدفء من مكان ما، العراء فقط هو ما حولهم. ارتجفت برداً حتّى اشتبكت أضلاعها ببعضها وصكّت أسنانها. ولا سبيل للاعتراف بذلك لأنه حالها حال المجموعة جميعها، لا سبيل للشكوى فلن يسمعها أحد، لا سبيل للبكاء فلن يمسح دمعها أحد. ما زال

مشـوارها فـي بدايتـه وعليهـا الصـبر لعلّهـا تصـل إلـى نهايته.

وصـلوا إلـى القمّـة بعد عنـاءٍ لـم يكـن هيّن، منعوهم مـن الهمـس ولـو بحـرف، ولكـن البـرد فـاق كـل قسـاوة وأجبـر أطفـالهم علـى البكـاء وهـم فـي حضـن أمّهـاتهم يرتجفـون مـن شـدّة قسـوة مـارس، صـاح (الدلّيلـة) بهـم، شـتموا أمّهـاتهم شـتائم قاسـية، كفـروا بـربّهم علنـاً، بصـقوا فـي وجـوه آبـاءهم، لـم يجـرئ أحـد علـى ردّ الشـتيمة بـأخرى. خُرسـت أفـواههم وفغـرت مـن شـدّة البـرد، فمـارس فـاق قسـوته قسـوة هـؤلاء الـذين هربـت الرحمة من أفئدتهم.

وبعـد سـير قرابـة الـثلاث سـاعات علـى ذاك الجبـل يسـتريحون قلـيلاً ويمشـون كثيـراً، وصـلوا أخيـراً وليـتهم

لـم يصـلوا. كانـت دبّابـة الجـيش التركـي واقفـة لهـم بالمرصـاد، تنظـر إلـيهم باسـتهزاء وينظـرون إليهـا برجـاء أن تتحـرّك ولـو قلـيلاً وتختفـي وراء شـجيرات الزيتـون. لـن تتحـرّك إطلاقـاً فهـي وضـعت هنـا مـن أجلهـم. ولـن ترحـل كمـا كـانوا يعتقـدون، أو كمـا زرع (الدلّيلـة) فكـرة رحيلها برؤوسهم الفارغة.

أطـلّ الصـبح بنـوره علـيهم محييـاً إيـاهم بـدفء أرسـله مـع الشـمس لتـدفئ قلـوبهم الحزينـة. فأشـرقت الشـمس ونشـرت نورهـا ودفئهـا فـي أنحـاء تلـك الجبـال. ولكنهـا ظهـرت وكأنّهـا مريضـة ، أطلـت مـن خلـف سـحب سـوداء، تظهـر تـارة وتختبـئ تـارة أخـرى، فاستعاضـوا عنهـا بـدفء مصـطنع، حيـث أشـعلوا النيـران ليسـتدفئوا

واقتربت النسوة لاعبت الأطفال بعد أن عادت إليهم حيويتهم المسلوبة.

لاذ (الدلّيلة) بالفرار وتركوهم لوحدهم لم يكتشفوا هروبهم إلا بعد مرور ساعتين، ليجدوا أنفسهم وحيدين على جبل كبير ودبّابة الجيش التركي ما زالت شاهدة على عزيمتهم، ساخرة من آلامهم.

لولا الرجال الأشدّاء ما كانوا لينزلوا من سفح الجبل الأجرد. ساعد الشبّان نورة وحملوا عنها طفلتها ومتاعها، ولكنّ شهد ومع كل تلك الأوجاع التي تجرّعتها من كان برفقة أمّها، لم تستيقظ بسبب الدواء والذي أطاحها ولم يوقظها إلا بعد عودتها إلى البيت.

وصلوا إلى الأرض أخيراً التي صعدوا منها، وجدوا السيّارة البيضاء بانتظارهم، ركبوها مسرعين

وكأنّهم هاربين من قدرٍ لا يرغبونه. عادوا يجرّون أذيال الخيبة ورائهم، ابتسامة مصطنعة رسموها على وجوههم لينعكس الحزن في أفئدتهم. اعتبروها تجربة ليس إلا تضاف إلى رصيد تجاربهم السابقة، علت أصواتهم بالغناء والفرح. بالضحكات والنكات الصغيرة، وهم يخططون لمستقبل سيكون آمناً لهم. ولكن نظرات نورة امتدّت إلى الأفق، إلى تلك المنارة الشامخة التي تراقبهم من عليائها ، شدّت المرأة العراقية يدها على يد نورة، وابتسمت لها وقالت:

– نحن هنا لأجلك، لا فرق بين وطننا ووطنك.

نظرت إليها نورة ونظرت إلى الأفق البعيد وهمست:

لأنني لاجئة

- مـــا زلـــت صـــغيرة والـــذهاب لوحـــدي ســـيتعبني كثيراً ويجعلني وليمة دسمة لذئب بشري شره.

- لا تخافي بتاتاً... نحن معك وسنبقى كذلك.

ضـمت نـورة إلـى صـدرها وهمسـت باسـم وطنهمـا، وطــن واحــد جمــع مأســاتهما وطــوى أحلامهمــا، وطــن واحــد شــعر بمعانــاتهم وإن كــانوا مــن وطنــين مختلفــين، ولكــن جمعــتهم مأســاة واحــدة، ألا وهــي الهــروب مــن نيران الحرب الهائجة.

قادوهـا إلــى البيـت الـذي اتخـذوه معقـلاً للمهـاجرين ممــن أرادوا الهــروب بعيــداً. فكــان عبــارة عــن غــرفتين فقــط، غرفــة للإنــاث وأخــرى للرجــال، أغطيتــه قديمــة وباليــة، شــديدة الاتســاخ ممــا غيّــر لونهــا ، ومــع ذلــك فهي قليلة جدّاً، ووسائدها متشحة بالسواد.

وصلوه منهكين، رموا بأنفسهم على الأرضية الباردة، جلسوا يخلعون أحذيتهم وأبدلوا ثيابهم بثياب نظيفة، قامت النسوة بإعداد الطعام، فيما فرّ الأطفال يلعبون ويمرحون خارج البيت ، وجلس الرجال على مقاعد خشبية في فناء الدار.

انتهت النسوة من إعداد المائدة وساعدتهم في ذلك نورة بعد أن أطعمت صغيرتها وتركتها تلهو مع الأطفال الصغار، كان الطعام شهيّاً لأنه صُنع من خيرات الوطن، أكل الجميع وحمدوا الله، وجلست النسوة يتدخلّن بأحاديث عامة حيناً وخاصة أحياناً أخرى، ما إن ينتهين من حديث حتّى تدخلن جميع النسوة بأحاديث لا تنته ، ولكن نورة أبدت شيئاً من تحفظها حيال ذلك، فهي لا تطيق البتّة التطرّق إلى

شـؤونها الخاصـة، لأن النهايـة سـتجرّها إلـى مـوت مالـك وهـذا مـا ترفضـه جملـة وتفصـيلاً، فبنظرهـا مالـك لـم يمـت وإنما بقي حارساً أمام شجيرة الياسمين.

كانـت هـذه تجربتهـا الأولـى فـي الصـعود إلـى جبـل الأحــلام، ذاك الجبـل الـذي يفصـل حلمهـا عـن واقعهـا، يفصل نيران الحرب عن الأمان.

يـا تـرى مـاذا خبّـأت لهـا جبـال إدلـب فـي رحــلات قادمـــة؟؟ هـــل ســـتعيد تجربتهـــا؟ أم تعـــود إلـــى دمشـــق منكّسة الرأس تجرّ ذيول الخيبة خلفها؟

الخيبــة والفشــل كلمتــان معــدومتان مــن قاموســـها. لا تطيق الفشل ولن تدعه يهزمها.

لـم تـنم كثيـراً بسـبب الازدحـام الخـانق فـي الغرفـة الصـغيرة، حاولـت جاهـدة النـوم لسـاعات طويلـة ولكـن

عبثاً، هرب النوم منها إلى عيون هي بحاجته أكثر منها.

بدأت حياتها الجديدة هنا وبدأت رحلاتها تتوالى الرحلة تلوى الأخرى، في رحلتها الثانية كانت أكثر قلقاً من الأولى حيث جاء المسؤول عن تهريب المجموعة العراقية وأخبرهم بتجهيز أنفسهم لرحلة اليوم وستكون مضمونة النتائج، كانت هذه كلمتهم على الدوام للتحفيز، خرجت إليه نورة لتذكّره بنفسها فلا ينساها في زحمة يومه. ولكنه أشاح وجهه البغيض عنها وأخبرها بصوته الأجش أنّه لا يعرفها واسمها لم يدرج في قائمة مجموعته الصغيرة. كان يتحدّث بلؤم واضح وكأنّها واقفة على بابه تطلب صدقة أو حسنة.

لأنني لاجئة

قفـزت الدمعـة مـن عينيهـا، وأظلمـت الـدنيا فـي وجههـا وأضـحت حالكـة السـواد. لا مكـان للبهجـة فـي حياتهـا القادمـة، هـي اختـارت دربهـا وعليهـا أن تقـف فـي جميـع تحدّياتـه، وتزيـل مـن طريقهـا جميـع الصـخور العالقة في دربها.

إذاً هل ضاعت في هذه المدينة البائسة؟

هل ستبقى هنا ولا أحد يعرف دربه إليها؟

هل ستبقى أسيرة هنا إلى الأبد؟

تركـت طفلتهـا تلهـو مـع الصـغار وأوصـت بهـا الكبـار، خرجـت إلـى ذاك المنـزل والـذي نامـت بـه فـور وصـولها إلـى هنـا، طرقـت البـاب طـرقتين متتـاليتين، ليظهـر لهـا شـاب بهـي الطلعـة، قصـير القامـة، ذو لحيـة خفيفـة علـى عكـس الرجـال هنـا ذوو اللحـى الطويلـة.

نظـرت إليــه وهــو يطالعهــا بانــدهاش وغــاب عــن ذهنهــا لمــا جــاءت؟ ومــاذا تريــد؟ وبعــد لحظــة قصــيرة قطــع هــو سلسـلة أفكارهـا ليسـألها بهـدوء ـ مـاذا تريـد ـ اسـتجمعت شـجاعتها ونطقـت الكلمـات بـبطء وغيّـرت ترتيبهـا ، فمـا كـان عليـه إلّا أن جمـع كـل كلمـة مـن مكـان ليكـوّن جملـة مفيـدة. ولكنـه أجـاب بـالنفي، فـلا يعـرف رجـلاً ذو لحيـة سـوداء كمـا تقـول، أخبرتـه بمواصـفاته كلّهـا ولكنـه أطرق رأسه بالنفي القاطع.

أغلـق بابـه فـي وجههـا، وتركهـا وحيـدة فـي مفتـرق طـرق مجهولـة لا تعـرف الاتجـاه الصـحيح لتمضـي إليـه مطمئنّـة، كـل السـبل سُـدّت فـي وجههـا الآن، عـادت تحمـل أعـلام الخيبـة، وهـي تفكّـر بحـلٍ ينقـذها مـن

مصـيبتها. إن نفـذت نقودهـا وتكسّـر حلمهـا بـين جبـال إدلب. ماذا ستفعل حينها؟

استبشـرت خيـراً حـين جاءهـا اتصـال مـن صـديقتها تطمـأنّ عليهـا. وهـي الصـديقة ذاتهـا التـي دبّـرت لهـا موعـداً مـع سـائق الحافلـة الـذي أقلّهـا إلـى هنـا. أخبرتهـا بمـا جـرى لهـا وكـأنّ لسـانها مـن يتحـدّث بينمـا قلبهـا ودموعهـا غـارقين فـي آلامٍ لا تحصـى. وقلـق ارتسـم علـى محياهـا أبـى أن ينصـرف. صـديقتها لـم تـرَ دموعهـا من خلف تلك الشاشة الصغيرة لكنها شعرت بقلبها.

أغلقـت صـديقتها الهـاتف واتصـلت مباشـرة بسـائق الحافلـة وأطلعتـه بمـا جـرى مـع نـورة الـذي اتصـل بـدوره مـع المسـؤول عـن تهريبهـا ووبخـه عـن إهمالـه وتقصيره حيال نورة.

بعد دقائق قليلة وجدت الرجل ذي اللحية السوداء واقفاً على الباب ينادي باسمها. خرجت إليه مسرعة وأخبرته بما حصل لها. أطرق ببصره إلى الأرض وهذه عادته حين يفكّر، ثم نظر إلى نورة وأمّدها ببطاقة عليها رقمه، وسمح لها بالخروج مع ذاك الرجل البغيض، مع المجموعة العراقية التي أحبّتها نورة. وغادر بعد أن أوصاها أن تتصل به إن هي دخلت أراضي تركيا أم لم تدخلها.

دقائق قليلة كانت كافية لتسعد نورة وتحلم بمستقبلها الجديد وتتفائل به، عادت لتحلم بالأمان والذي أضحى قاب قوسين أو أدنى، تراه قريباً ولكنه بعيد المنال.

في تمام الساعة الثانية فجراً خرجت المجموعة العراقية ذاتها وكانت من بينهم، وكان عددهم يتراوح الخمسة وعشرين ما بين نساء وأطفال ورجال. وكانت الغلبة للأطفال.

خرجت في رحلة جديدة، لتواجه تحدّيات وصعوبات وأملٌ في الخروج من مستنقع وضعت نفسها به بإرادتها وأضحى طريق العودة إلى الديار من المحرّمات.

كانت المجموعات المراد تهريبها لا تخرج إلّا ليلاً بعد منتصف الليل، وكانوا يخرجون في جماعات متفرّقة، كلّ مجموعة لها ساعة لا تحيد عنها. وكانت أغلب المجموعات تصل إلى الحدود عند أذان الفجر، حيث تتم عملية تبادل حرس الحدود مواقعهم، وهذا

بالـذات هـو أنسـب الوقـت حيـث تـدخل مجموعـات لا بـأس بهـا، إن كـان الحـظ حليفهـا. ولكـن فـي أحيـان أخـرى يقـف القـدر فـي طـريقهم والحـظ العـاثر فـي وجـوههم فينتبـه حـرس الحـدود لهـم والتكملـة تعرفونهـا جيّداً.

كـان أملهـم وحلمهـم الصـغير هـو اجتيـاز ذاك الشـارع والـذي يسـمونه النـاس (الزفـت) حيـث تسـمع العديـد يتمنّـون أن يشـاهدوا (الزفـت) ولـو مـرّة واحـدة، ولكـن حـرس الحـدود الملقّبـون بـ (الجندرمـة) يكونـون لهـم بالمرصـاد قبـل رؤيـتهم لـذلك الشـارع. السـلطات التركيـة كانـت السـبب فـي كـلّ مـا يحـدث حيـث سـدّت منافـذ حـدودها جميعهـا فـي وجـه الهـاربين مـن نيـران حـربٍ هائجـة، خـائفين أن تطـالهم أو تطـال أطفـالهم.

ومـن قبلهـا كانـت لبنـان والأردن ممـن أغلقـت أبـوابهم بوجه الهاربين من الحرب القذرة.

سـارت السـيّارة بهـم بصـمت مطبـق وهـي تشـقّ دربهـا باتجـاه الجبـال الحدوديـة. ولكـنّ سـرعان مـا توقّفت عنـد حـاجزٍ لجبهـة النصـرة وقبـل أن تعـرف نـورة ماهيّـة هـذا المجموعـة، بـدؤوا ينهـالون عليهـا بأسـئلة لا ترحمهـا، وأجوبـة ضـاعت منـذ زمـن وتاهـت حـين غـادرت دمشـق. سـألوها عـن وجهتهـا المـراد الوصـول إليهـا وأيـن محرمهـا (الرجـل المسـؤول عنهـا مـن زوج وأخ وأب). أخبـرتهم بوفـاة زوجهـا ولا إخـوة لـديها، بـدأت تتوسّـل إلـيهم أن يـدعوها وشـأنها، كـان الخـوف هـو سـيد الموقـف آنـذاك فقلـوبهم لـم تعـرف الرحمـة يومـاً. كـان الكـلام يخـرج لوحـده مـن فمهـا دون أن تكـون

المسؤولة عن ترتيبه. فهي تخشاهم ومعها كلّ الحقّ في ذلك تخشى أن يسارعوا باستغلالها لأنها دون معيل. فيتزوجها أحدهم باسم دين هو بريء منهم. ولكن تدخل (المهرّب) في صفّها منعهم من أخذها إلى حيث لن يراها أحد بتاتاً. إلى حيث لن ترى النور مطلقاً.

تنفّست الصعداء حين أزاحوا وجوههم عنها وأمروها بلهجة تخلو من الرحمة أن تصعد السيّارة. شكرت بدورها (المهرّب) لإنقاذه لها من براثنهم وضمّت كالعادة شهد إلى حضنها حتى كادت أن تكسر عظامها دون أن تدري، وما أيقظها من ذلك سوى صراخ شهد الذي جعلها تبتعد عنها وتعود لضمّها ضمّة الحب والحنان. كانت ترى مالك في

شـــهد. فحينمـــا تحتضـــن شـــهد تحتضـــن مالـــك وهـــي مغمضـــة العينـــين حيـــث تســـافر إلـــى عـــالم لوحـــدها. عـــالم يجمعهـــا مـــع مالـــك فـــي صـــفحة بيضـــاء خاليـــة مـــن أي سواد يلطخها.

وصـلت إلـى جبـل يـدعى (مصـفيّات) ونـزل مـن فـي السـيّارة، مشـوا فـي درب مـن تـراب، حولـه أشـجار جـوزٍ كثيفـــة. فـــرت الســـيّارة هاربـــة مـــن شـــيء لا يعرفونـــه. وتـــركتهم وحـــدهم أمـــام جبـــلٍ كبيـــر، بداخلـــه مفاجئـــات كثيـــرة بانتظـــارهم. كالعـــادة أعطـــت (الدلّيلـــة) أوامرهـــا للمجموعـــة، ومشـــوا فـــي طـــابورٍ واحـــد خلـــف بعضـــهم الـــبعض. كـــي لا تـــزلّ قـــدم أحـــدهم ويســـقط فـــي نهـــر العاصـي، أكـان العاصـي فـي ذلـك الوقـت يسـخر مـنهم؟ فبـالرغم مـن كبـره وغزارتـه لـم يسـتطع أحـد لمحـه ولكـن

صوته الهادر نبّه الجميع أنّ في هذا المنحدر نهر كبير وجب الاحتراس منه.

وكالعادة وحدها نورة من تخلّفت عنهم بسبب حملها الثقيل، حقيبتها على ظهرها وشهد بين ذراعيها نائمة من جرّاء دواء شديد لا يجعلها تستيقظ إلّا بعد مرور ساعات إمّا أن تكون حينها قد اجتازت الحدود وإمّا الرجوع خطوات كثيرة إلى الوراء.

تفاجئت بشابٍ طويل، خطف منها صغيرتها وسألها:

- هل أنت وحيدة،

أجابته بإيماءة صغيرة. سرعان ما أخذ منهاحقيبتها دون حتّى أن يبادر باستئذانها. ابتسم لها ابتسامة صغيرة منحها الأمان فيها.

- اسـمي "عبـد العزيـز" وأنـا الشـاب السـادس مـن الدلّيلـة. سـأتعهد بمسـاعدتك علـى حملـك الثقيـل، بشـرط أن تسـاعديني هنـاك، إذا مـا اعتقلنـا الجـيش التركـي، وتخبـريهم بـأنني زوجـك وأبـاً لصـغيرتك... مـا هـو اسمك.

- نورة وطفلتي شهد

أخبرهـا بمعلومـاتٍ صـغيرة عنـه، ومنحتـه مرغمـة معلومات أصغر عنها.

كانـت العـادة هنـاك فـي تلـك الجبـال وكانـت سـائدة فـي معظـم الأحيـان، حيـث كانـت (الدلّيلـة) تبحـث عـن نسـاء دون أزواج وعـن فتيـات دون عـائلات، ليكونـوا بمثابـة أزواج لهـنّ أو أخـوات، يـتم ذلـك فقـط بتبـادل معلومـات عائليـة، حيـث تكـون العلاقـة علاقـة مصـالح لا

أكثر هو يحمل عنها حقيبتها ويساعدها في أطفالها، وهي تساعده في التخلّص من (الجندرمة) التركيّة، لأن الأتراك حين يرون رجالاً دون نساء تحوم حولهم الشكوك بأن هؤلاء هم (المهرّبون) ويبدؤون بمرحلة تحقيق تنتهي إلى القتل في معظم الأحيان.

اتفقت معه على كلّ ما قاله وكانت معه يداً بيد. ولكنّ الجبل لم يتفق معهم ولم يكن معهم بل كان عليهم، وقف بطوله الضخم لهم بالمرصاد. من تحته العاصي ومن فوق جباله الملساء، يشبه السير عليها السير على جليد. كانت النباتات الشوكية تنمو على جانبيه. وكأنّ في تلك الرحلة كانت الطبيعة ضدّهم. نهرها المظلم، جبالها الملساء، نباتاتها الشوكية. كان التراب يتحرّك من تحت أقدامهم وكأنّه يلاعبهم في

وقـتٍ هـم بـأمسّ الحاجـة إلـى لحظـات الجـدّ والعمـل. فيهرعـون ويمسـكون بالنباتـات الشـوكية ولا يتركونهـا إلّا بعد أن تتلطّخ أيديهم بالدماء.

إذاً مـا الحـل فـي صـعود ذاك الجبـل الـوقح؟ النهـر أسفلهم والشوك على يسارهم ولا سبيل لصعوده أبداً.

كـان النهـر بصـوته الهـادر ينتظـر فريسـة مـنهم يجعلهـا وليمـة لعشـائه، ولكـن مسـاعدة (الدلّيلـة) لهـم حالـت دون ذلـك. كـلّ مـا فـي الطبيعـة تـآمر علـى تلـك المجموعـة البائسـة ولا سـبيل للفكـاك مـن مـأزق وضـعوا أنفسهم به.

كلّمـا تنتهـي مرحلـة صـعودهم إلـى جبـل صـعب يطـالعهم جبـل أصـعب بكثيـر ممـا قبلـه، وكـأنهم عـالقون فـي لعبـة مـن الألعـاب الذكيـة حيـث يبـدؤون مرحلـة

سهلة ثم يليها فيما بعد مراحل متعددة تنتهي بمرحلة الموت إذ هو أسهل المراحل، ولكن في تلك اللعبة تنتظر الفوز الأكيد. وهنا ماذا ينتظرهم؟ إمّا فوز وانتصار، وإمّا خسارة والعودة على أعقابهم حاملين راية جديدة من رايات الخيبات المتتالية.

بكت النساء، صرخت الأطفال، صاح (الدلّيلة) في وجوههم كي يسكتوا، ولكن صراخهم أسُكت (الدلّيلة) كان المهرّب قد وعدهم برحلة سهلة وبجبل منبسط وسهل أخضر. ولكن ما صادفهم عكس ذلك تماماً، وكان قد وعد (الدلّيلة) بمجموعة خالية من نساء وأطفال، فقط رجال ليتحمّلوا صعوبة تسلّق هذه الجبال. ولكن ما رأوه حتّى الرجال لم يقدروا عليه.

لأنني لاجئة

هـل تخيّلـت نفسـك عزيـزي القـارئ أن تصـعد جـبلاً ككثبـان رمليـة تتحـرّك تحـت قـدميك، تنظـر إلـى الأسـفل فتجـد نهـر غزيـر فـي قاعـه صـخور كبيـرة. تحـاول الإمسـاك بشـيء كـي لا تمـوت موتـة لا تتمنّاهـا، فتجرحـك الأشـواك وكأنّهـا لا تريـد مـن أحـدٍ الإمسـاك بهـا. ربّمـا هـي خائفـة مـن اقـتلاع جـذورها بسـبب ضـخامة جسـد أحـدهم. وحـين تنظـر إلـى الأعلـى تجـد الجبـل العمـلاق، فـتظن للوهلـة الأولـى أنّ لـه بدايـة دون نهاية. وهذا ما حدث لتلك المجموعة هناك.

رأت نـورة يـداً تمسـك بيـدها، نظـرت إليـه ليطالعهـا عبـد العزيـز بوجـه مبتسـم، كـان خائفـاً عليهـا مـن أن تـزلّ قـدمها فتهـوى إلـى الأسـفل، ولكـن الجبـل بـات أكثـر صعوبة وأكثر تعرّجاً.

لم يستطع أن يكمل السير مع نورة فأقنعها بضرورة العودة قبل أن يصادفهم جبل لا يعرف الرحمة. قبلت بدون قناعة ولكن ما عساها أن تفعل. نزلت دمعتان تبكيان بقهر رحيل تلك المجموعة دونها. وعودتها لوحدها تحمل راية الفشل، لم تستطع أن تتحمّل مشاق تلك الرحلة الآثمة، فهي ابنة دمشق. المدينة التي دلّلت أبناؤها وحفظتهم من الأخطار. لم يخطر على بالها يوماً أن تكون مجبرة على صعود جبل لا يعرف الرحمة.

نزلت حزينة لفشل ثانٍ كتب لها، حزينة لفراق مجموعتها الطيّبة التي اعتبروها أخت لهم وابنة، كان عبد العزيز يساعدها في كلّ خطوة تخطوها، كأمّ تعلّم طفلها مشيته الأولى، وكان أحنّ عليها من تلك الأم

يخبرهـا أيـن تضـع قـدمها والمواقـع المحظـور عليهـا وضعُ قدمها فيها. منعها من النظر إلى الأعلى كي لا تحـزن علـى فـراقهم. منعهـا مـن الإمسـاك بالنباتـات الشـوكيّة ومنحها يـده الدافئـة بـدلاً عنها. كانـت نـورة محظوظـة لأنّ الله منحهـا شـبيهاً بمالـك. وكـأنّ روح مالـك تركت عتبـة البيـت وتمثّلت لها في هـذا الشـاب الـذي ظهـر لهـا مـن بـين تلـك الجمـوع ليمسك بيـدها ويساعدها لتنجو من درب وعر.

وأخيـراً وصـلوا إلـى النهـر واجتـازوه دون مخـاطر، وجلسـوا لوحـدهم والقمـر ثـالثهم ينتظـرون السـيّارة لـتقلّهم ويتحـدّثون فـي شـتّى المواضـيع. كانـت خائفـة من كـلّ شـيء. فالليـل لـم ينجـل بعد وانطفـأت نصـف نجـوم السماء، وحده القمر من يطلّ عليهم من خلف

تلك السحابة السوداء ليعود مجدّداً ويختفي خلفها وكأنه يلاعبهم لعبة الغميضة. وعبد العزيز شاب قد تجاوز الثلاثين بسنة واحدة. ونورة جميلة وصغيرة. حولها الأطماع كثيرة، فكيف إذا كانت الأرض كبيرة ونهر العاصي يسير رقراقاً بصوته الهادر بجانبهم، وكأنّه يعيد تنبيههم للمرّة الألف إن في هذه البقعة نهر كبير فاحترسوا منه. ولكنّ النهر لم يعد يخيف أحد، البشر هي من أضحت ذئاباً وجب الاحتراس منها. ولكن عبد العزيز لم يطلب شيئاً من نورة وجعل بينه وبينها مسافة أمان لم يتخطّاها. هي حاولت قدر الإمكان أن تبتعد. ولكن صوت ما بداخلها يحثّها على الاقتراب منه. فلا أمان سوى قربه.

شـعرت بالارتيـاح حـين سـمعت صـوت المجموعـة التـي كانـت معهـم يتراكضـون ويتزحلقـون علـى الجبـل، وعنـدما وصـلوا إلـيهم بثيـاب باليـة وسـخة، أخبـروهم بـإطلاق (الجندرمـة) الرصـاص علـيهم ممـا جعلهـم يهربـون، يدوسـون بعضـهم، غيـر مبـالين بأحبّـاءٍ لهـم تحـت أقـدامهم. هـرب مـن اسـتطاع الهـرب وأمسـكت (الجندرمة) بمن تلكّأ ولم ينجُ بنفسه.

وقبـل أن تركـب السـيّارة أعطاهـا عبـد العزيـز رقمـه وأخـذ رقمهـا ليطمـأنّ عليهـا إن هـي دخلـت. إن سُـدّت الأبـواب فـي وجههـا فبابـه مفتـوح حيـث وعـدها برحلـة آمنة إلى تركيّا، وحدهما فقط.

فما هي غايته؟ ولماذا مصرّ على أن تخرج معه في رحلاته حيث لا مكان للخطورة فيها؟ هذا ما ستعرفه نورة فيما بعد.

ركبت السيّارة صامتة ممنّية نفسها الخروج من هذه المدينة. وعدّة استفسارات وأسئلة تحوم حول رأسها مرتبطة جميعها بعبد العزيز.

وصلت مرهقة إلى البيت، أبدلت ثياب طفلتها وأطعمتها الحليب، تركتها تلعب بعد أن أخبرت ذاك الرجل بخيبتها الثانية، ليجد لها حلّا سريعاً بالخروج من مدينة لم تعد ترغب المكوث فيها أكثر.

في عصر اليوم التالي وتحديداً في الساعة الثالثة عصراً، جاءت حافلة بيضاء (سرفيس) وترجّل منها شابٌ صغير لم يتعدّ عامه العشرون بعد. له

شعر أشقر طويل يتعدّى كتفه، سأل عنها الصبية الواقفين على عتبة البيت.

أطلّت عليهم لتسأل عن غايتهم ولكنه سبقها بإجابته، فهو مبعوث من قبل ذاك الرجل ذو اللحية السوداء وهو المسؤول الآن عن عملية تهريبها. كيف لشابٍ صغير أن يكون قائد مجموعة وله منطقة يحتلّها باسمه؟ لا لم يكن كذلك، كانت مخطئة نورة في تقديراتها. فهناك على الجبل يقف أحد كبار المهرّبين ممن يترأسون عصاباتٍ أخرى.

أحضرت حقيبتها وطفلتها وركبت معهم ولم تنبس ببنت شفة. كان كل تفكيرها بالجبل الجديد القابع في مكانه بانتظارها.

وصلت الحافلة إلى منطقة مليئة بخيم المهجّرين من جبل التركمان. (اللواء العاشر) منطقة مغامراتها الجديدة. وحكايات ترويها فيما بعد. ترجّلت من الحافلة ليخبروها عن مقرّ إقامتها الجديدة ريثما يحين وقت خروجها. كان المقر عبارة عن خيمة قذرة وبداخلها امرأة بدينة ومعها أطفالها الستة، وكانوا آنذاك يلعبون بالرمل ويعفرون التراب على وجوههم. نظرت إلى الفراش كان عبارة عن قطع بالية متسخة غاب عنها لونها ليحتلّ مكانه لون أسود شاحب. فاحت الروائح النتنة وعبقت أرجاء المكان لتطرد نورة من مدخل الخيمة وتجعلها تتراجع خطوات إلى الوراء، لترى الشاب ونسينا أن نخبركم عن اسمه (محمد) كان واقفاً خلفها، رفضت أن تستقرّ في تلك الخيمة ولو ساعة واحدة من الزمن. وطلبت منه بقاءها في

الحافلـة ريثمـا يحـين موعـد خروجهـا. وافـق علـى الفـور ولـم يتـردد فـي قبـول طلبهـا. ولـه فـي ذلـك غايـات أخـرى لـم تـدركها نـورة منـذ البدايـة. مـازال فـي خيالهـا أنهـا تسـكن عالمـاً مثاليـاً. غـاب عـن ذهنهـا أنّ المـرأة حـين تكون وحيدة يسهل على الذئاب البشرية اصطيادها.

لـم تصـادف العراقيـل الصـعبة هنـا فـي صـعودها إلـى هذا الجبـل، بـل كـان أسـهل مـن ذاك الأخيـر مـع أنّـه كـان شاقّاً بدوره.

مجموعـة صـغيره هـذه المـرّة، تمثّـلت بـالمرأة البدينـة وزوجهـا وأطفالهـا السـتة ونـورة فقـط، وقـد أحسّـت نـورة بخجـل مــن الأطفــال حيــث كــانوا يتراكضــون علــى ذاك الجبـل دون توقّــف وهــي كانــت تسـير كعجـوز اقتربـت مــن لحــدها، تمشــي تــارة وتتلكّــأ تــارة أخــرى، تتمسّــك

بأغصـان الأشـجار المتوضّـعة علـى اليمـين. لـم يهـتم (الدلّيلـة) لنـورة ولـم يحملـوا عنهـا صـغيرتها. وفـوق هـذا كلّـه كانـت شتائمهم تصل إلـى الجانـب التركـي. مـن كثـرة مـا صـاحوا فـي وجـوههم. لـم يهتمـوا لأحـدٍ ولـم يسـاعدوا أحـد. وكلّمـا طلبـت مـنهم الراحـة كـانوا يقـابلون طلبهـا بصـمت لا يشـقّه سـوى لعـابهم النـافر مـن فمهـم حـين يصيحون أن تلكّأ أحدهم أو أصدر صوتاً.

وصــلوا إلــى شــجيرات الزيتــون القابعــة علــى الحــدود. أطـلّ علـيهم جنـدي صـغير، خلـف أشـجار الزيتـون اختبـأ كـي يفـاجئهم إن تخطّـت أقـدامهم جـذوع الشجيرات الصغيرة.

حـين نظـرت نـورة إلـى خلفهـا وجـدت مجموعـة مـن الشـبّان تتقـدّم مـن خلفهـم إلـى الحـدود، بينمـا الجنـدي

كـان يراقـب مجموعـة نـورة ومـن معهـا. لـم تكـن بحاجـة إلـى التفكيـر العميـق لتـدرك فـوراً أنهـم كـان مجـرّد طعـمٍ لدخول تلك المجموعة الأراضي التركية.

دخلـت تلـك المجموعـة رافعـة رايـة الانتصـار وعـادوا هـم رافعـين رايـة الهزيمـة. كـان درب النـزول سـهل جـدّاً وكأنّها ما مرّت عليه من ساعات قليلة.

جلسـت فـي الحافلـة لوحـدها، لا... لـم تكـن لوحـدها بـل كـان محمد معهـا جالسـاً فـي المقدّمـة وينظـر إليهـا مـن مـرآة الحافلـة. جافاهـا النـوم وأمرهـا ألّا تغمـض جفنيهـا بسـبب نظـرات محمد وعيونـه المتفرّسـة باتجاههـا. وحـين حـلّ الهزيـع الأخيـر مـن الليـل، اقتـرب منهـا وبـدأ لسـانه يفـوح بكـلام الغـزل، أبعدتـه بحركـة سـريعة مـن يـديها الاثنتـين. وهربـت مـن الحافلـة لتقـف أمـام الخيمـة. كانـت

خائفة جداً ولاسيما بقاء شهد في الحافلة لوحدها. الكلّ نيام وحده القمر من يراقبهم ويراقب خوف نورة وشراهة محمد. هددها إن لم تستجب لطلبه لن تدخل الأراضي التركيّة إطلاقاً. كان الموت أرحم عليها من طلبه هذا.

رفضت الصفقة التي حاول عقدها وإن بقيت في المستنقع القذر هذا شهوراً. أبعدته بجرأة بعد أن هددته بالصراخ عالياً إن اقترب منها. ودخلت الحافلة أخرجت منها حقيبتها وطفلتها الصغيرة وخرجت إلى الخيمة. كانت الخيمة القذرة ملاذها الآمن. لم تكن تعلم أن قذارة النفوس هي الأسوأ. هذه القذارة ستتحملها إن فكّرت أنّ في هذا المكان قذارة أكبر منها لا طاقة لها بتحمّلها.

أربعة أيام تقضيها نورة في النهار خارج الخيمة تحت شمس مارس وفي الليل داخل الخيمة، ولم تخرج بتاتاً إلى الجبل. ولم يسمحوا لها بذلك. كانت ترى الجموع تحتشد أمام الجبل لتصعد إليه، وحين تسأل عن نفسها يبعدوها ـ لم يحن وقتها بعد ـ أي أنها لم تنضج بعد. كانت تلك العصابات كلّها متّفقة مع بعضها. إنهما مافيا وأسوأ من ذلك.

كان الاتفاق واضحاً جسدها مقابل عبورها. حين رفضت بيع جسدها لهم، رفضوا عبورها.

حين وجدوها أعند منهم أخذوها إلى منطقة دركوش لتخرج من هناك، بعد أن طافوا قرى إدلب كلّها محاولين إقناعها بضرورة الخروج معهم. هم

فقط من يستطيعون إدخالها. كلّ الطرق سدّت منافذها، وطريقهم وحده المفتوح.

وصلوا إلى دركوش وكانت منطقة ساحرة، تتوسّط منطقة جبلية. أوهموها وكالعادة بدخولها السريع إلى تركيّا. كان الصعود إلى تلك البيوت عبر السلالم الحجرية. دلفت إلى منزل الشخص المسؤول عن تهريبها، وكان يقطن مع عائلته. أدخلوها إلى غرفة كبيرة وطلبوا منها المبيت فيها مؤقتاً.

كان الجو بارداً، وكأنّ البرد كلّه قد اختزن في هذه المنطقة. الجوع بدأ ينهش معدتها ورائحة الطهو فاحت من المطبخ حيث أهل البيت يطهون طعام الغداء. انتظرت قليلاً، ربّما أتوها بصحن مما تطهو أيديهم. ولكن بخل أهل البيت فاق بخل الحُطيّئة،

لأنني لاجئة

خرجت إليهم كي تطلب غطاء لتدفئ شهد، أتوها بما طلبته، وحين طلبت عنوان حانوت صغير تشتري منه الخبز والطعام المعلّب. لم يترددوا في ذلك كان همّهم الوحيد ألّا تأكل من زادهم. لكنّ صاحب البيت لم يكن منهم، كان كريم النفس حين جاء ووجد نورة تريد التسوّق، أمر أهل البيت أن يضعوا لها أطايب الطعام، أدخلوها إلى حجرتهم ووضعوا لها مما كانت أيديهم تطهوه وجلسوا بجانبها ينظرون إليها وكأنّها حوريّة البحر خارجة للتو من بحر عميق المياه.

استأذنت بالانصراف ولم تأكل جيّداً بسبب العيون التي التهمت معها طعامهم. وحين دخلت الحجرة الكبيرة وجدت رجلاً فيها، وهو المسافر الجديد في رحلتها هذه.

لأنني لاجئة

رغم البرد القارص الذي يلعب بالغرفة كأنّها غرفته وعلى الرغم من وجود رجلٍ لا تعرفه فيها إلا أنّها نامت دون أن تشعر بشيء.

أيقظوها في الساعة الواحدة صباحاً لتبدأ رحلتها في جبالٍ جديدة لم ترها من قبل.

كان طريقها طويلٌ جدّاً ومختلف هذه المرّة، ولكنّه خالٍ من الصعوبات، توضّعت الأشجار العملاقة الوارفة الظلال على جانبيه وكأنّها تحرس مياه النهر المنحدر من أعالي الجبال. (الدلّيلة) صغار في العمر، حيث أصغرهم لم يتعدّ السابعة عشر وأكبرهم لم يتجاوز التاسعة عشر. كانوا ستّة شبّان وكانت المجموعة المراد تهريبها صغيرة أيضاً. ثلاث نساء وشابان وثلاثة أطفال.

نصف ساعة أو ربّما أكثر وهم يسيرون في نهرٍ صغير حيث امتلئت أقدامهم بالوحل والطين. طمرت المياه أقدامهم وضاق الدرب عليهم أكثر، وما باليد حيلة سوى الصمت المخيّم عليهم.

وصلوا إلى الحدود فوقف بوجههم جبلٌ صغير، كالمارد في وقفته، شبك يديه الاثنتين ببعضهما يتحدّاهم أن يمرّوا. الصعود عليه كمن يصعد على لوح صابون، حين يكون مبلّل القدمين بالماء. على حافتي الجبل تنمو شجيرات طويلة الساق، ولكن الصعود على ذلك الجبل أشبه بلعبة الانزلاق. استطاع أربعة شبّان الصعود بمساعدة سيقان الأشجار الطويلة. حمل الشابان الاثنان الأطفال وأعطوهما للشباب الواقفين في الأعلى، ريثما يساعدن النساء

فـي الصعود أيضـاً. ولكـن مـا حصـل لـم يكـن فـي حلـيفهم أبـداً حيـث اسـتيقظ الأطفـال علـى تلـك الضـجّة المحدثـة بسـبب الجبـل الصـغير وبـدؤوا بحفلـة بكـاء متواصـلة لـم تنتـه إلا بعـد أن أعـادوا الأطفـال إلـى أحضـان أمهـاتهم بسرعة قبـل أن يحضـر الحفلـة جميـع مـا فـي الحـدود مـن حـرس. وطلبـوا مـن نـورة وتلـك المـرأة والـدة الطفلـين العودة بسرعة يرافقهم اثنان من (الدلّيلة).

وكمـا عرفنـا سـابقاً فـي تلـك الجبـال يحظـر علـيهم الكـلام ولـو همسـاً، البكـاء والصـراخ، الشـكوى والتـذمّر. كلّهـا ممنوعـة. إن أردت البكـاء فـاحتفظ بـه فـي قلبـك. ممنـوع التعـب والجـوع والعطـش والاحتجـاج. يجـب علـيهم السـير كالبهـائهم، خافضـين أبصـارهم. يسـيرون وراء (الدلّيلـة) دون أن يعرفـوا إلـى أيـن يقـودوهم؟

يسـيرون دون مراعـاة لمشـاعر النسـاء والشـيوخ والأطفـال. وكـأنّ هـؤلاء النـاس خلقـوا فـي تلـك الجبـال وعاشوا مثلهم وتنقّلوا في الجبال الحدوديّة كافة.

عـادوا أدراجهـم، وارتسـمت علـى وجـوههم علامـات الحـزن وفـي قلـبهم حقـد علـى ذاك الجبـل الأملـس، لـولاه لكـانوا الآن فـي تركيـا. أصـبحت ثيـابهم كتلـة مـن وحـلٍ وطـين. انطلقـوا السـاعة الواحـدة صـباحاً وعـادوا السـاعة الثامنـة صـباحاً. ركبـوا الحافلـة الصـغيرة والصـمت قـد خـيّم علـيهم وكأنّـه صـار جـزء مـن حيـاتهم. فهـم لـم يسـمعوا منـذ أن دخلـوا المدينـة الكئيبـة سـوى (اششـش) وبعـدها كـلّ الأفـواه يجـب أن تخـرس وإلّا عـاد أصـحابها دون السـماح لهـم بـالخروج أبـداً. لا كلمـة

تنطق بعد هذا التنبيه المقدّس وإن كانت عبارة عن آهٍ مصحوبة بوجع منبته القلب والصدر.

وصلت الحافة إلى منطقة "دركوش"، وترجّل جميع من فيها، ما عدا السائق الذي أكمل سيره إلى بيته.

أوصلوهم إلى غرفة صغيرة، بابها على الشارع العام، فتحوها لهم، ليقابلوا أربعة رجال نائمون في الزوايا الأربع. تراجعت خطواتٍ إلى الوراء واحتضنت شهد الصغيرة بخوف وكأنّها تهرب من واقعها إلى واقع طفلتها الصغيرة. احتضنت طفلتها وجزء من خيباتها. رفضت الدخول إلى الغرفة الصغيرة، فلا مكان لتطأه قدمها ، كيف وفيها أربعة شبّان. هل ستنام معهم في غرفة واحدة؟. هل ذهبت المروءة

لأنني لاجئة

حين ذهبت إدلب إلى أناس لا يعرفون للرحمة سبيل؟ دخل الشباب الذين كانوا معها ولم يهمهم ضيق المكان. استراحة ساعتان فيها، ينفضون عن أجسادهم غبار التعب، وينامون قليلاً لترتاح أجسادهم فيخرجون الليل إلى الجبل بكامل نشاطهم وقوّتهم.

استطاع شابٌ واحد أن يفهمها وهو في الثامنة عشر من سكّان البلدة، سيصبح أبا قريباً . ومع صغر سنّه إلّا أنه كان واعياً ومدركاً لجميع الأمور من حوله. أخذها إلى بيته وهناك استقبلتها زوجته استقبالاً بارداً بعض الشيء ومع ذلك قدّمت لها المأكل والمشرب والمنامة وحتّى اللباس.

نامت نورة ربّما ساعة واحدة أراحت فيها جسدها الذي بدأ يصرخ في وجهها أنّه ما عاد يحتمل التعب

أكثـر مـن ذلـك. التعب لـم يكـن فـي قـدميها بـل كـان فـي قلبهـا. هربـت الآلام مــن جسـدها لتسـتقرّ فــي فؤادهـا رافضة الرحيل عنه.

مـاذا تخبّـئ لهـا مدينـة إدلـب أكثـر ممـا أظهرتـه لهـا؟ مـا هــي المفاجئـات التــي تختبـئ بـين جبالهـا؟ ومتـى ستظهر لهـا لترميهـا فـلا تعـود بمقـدورها الوقـوف علـى قـدميها؟ هـذا مـا تخشـاه أن تضـيع فـي مدينـة لا تعـرف الرحمة أبداً.

جـاء محمّـد وصـديقه بعـد أن اتصـلت بـه هاتفيـاً تخبـره بفشـلها الجديـد. أخبرتــه بعودتهـا إلــى أرض الـوطن مجـدّداً، وكـأنّ الـوطن يريـد الاحتفـاظ بهـا فـلا يريـدها أن ترحـل إلـيٍ بلـدٍ لـن تجـد فيـه الحـبّ والأمـان، كـأنّ الـوطن يريـد تقـديم اعتـذارٍ لهـا عمّـا فعلـه بمالـك،

ولكن ما ذنب الوطن إن كانت أمنية مالك أن يبقى حارساً على عتبة البيت.

ركبت معهما بعد أن شكرت صاحبة البيت على ضيافتها المتواضعة. وغادرت معهم بصمتٍ حزين. حاول إقناعها بالعودة إلى أحضانه الدافئة. فلا أحد سواه يملك طرق التهريب الأكثر ضماناً وفاعلية. لكنّها رفضت بإصرارٍ أكبر فهي تدرك جيّداً الثمن الواجب عليها دفعه لقاء عرضه السخي. لن تسامح نفسها إن دخلت تركيا مقابل هذا العرض. لن يسامحها مالك أبداً ولن تغفر لها شهد.

أعادوها إلى خربة الجوز بعد أن فرغت أيديهم منها ووجدوها امرأة عنيدة لا تقبل المساومة.

لأنني لاجئة

اتصلت بعبد العزيز لتخبره بما جرى لها وفي القلب بكاء لن يفهمه أحد ولن يسمعه سواها.

كان البيت في حالة يرثى لها من القذارة. لم تستطع دخوله، بقيت في الخارج هي وصغيرتها، رغم صقيع مارس في تلك المناطق الجبلية إلّا أنه أرحم من تلك القذارة. ساعات مرّت قبل أن يصل عبد العزيز، كانت بمثابة دهر وعمر من وجع وألم.

جاء منقذها أخيراً ولكن لم يكن لوحده، كان معه صديقه وزوج أخته. ركبت معهم، وسارت السيّارة بسرعة البرق إلى منطقة جديدة، تعرّفت عليها نورة لأوّل مرّة ألا وهي (الزعينية). دلفت إلى البيت الصغير وكلّها أمل ألّا تطول إقامتها هنا.

لأنني لاجئة

لم يسمحوا لها الرحيل تلك الليلة مع من رحلوا، بسبب حجّتهم الواهية أن من خرجوا هم شباب فقط. تركها عبد العزيز في بيت صديقه ورحل ليشرف على عملية التهريب بنفسه، وبقي صديقه بجانبها، كانت عيونه لا تنذر بالخير أبداً. وكأنّه ذئباً يريد أن يفترس النعجة الوحيدة التي أمامه، لم تكن نعجة بل كانت لبؤة، كان ينظر إليها ببرود وكأنّه يريد أن يسمّنها على نار هادئة لتنضج.

بدأ الخوف يطلّ من عيّنيها، وقد أحسّ بهما، حاول أن يطمئنها بكلماتٍ سخيفةٍ مثله، فهو ليس إلّا رجل ولا يجب أن تخاف منه، أو ليست صفة رجلٍ بحد ذاتها مصدر خوف بالنسبة لها ولاسيما إن كانوا

وحيدين والشيطان ثالثهما. ربّما لو كان ذئبٌ لما خافت منه هكذا.

حاولت الاتصال مراراً بعبد العزيز تستنجده ولكنّه يبدو أنّه غدرها وغدرها بدوره هاتفها حيث نفذت بطاريّته. أخذه الشاب منها ووضعه في مكان بعيد عنها حيث وصله بمقبس الكهرباء.

هنا وجدت الفرصة متاحة لتخرج من الغرفة الصغيرة وتقف على قمّة الجبل تشاهد جبال إدلب الخضراء ونهر العاصي الهادر. جلست على الصخور الصمّاء فهي الآن منجدها وإن غدرها كلّ شيء لن تغدرها تلك الصخور.

هل كان عبد العزيز على علم بمخططات صديقه؟

أم أنّ صديقه هو من بعثه بمهمّة صعبة والعودة منها ليس بالأمر اليسير؟

طلب منها الشاب أن تدخل من البرد، فالبرد لن يرحمها إن هي عاندت على البقاء في الخارج. ولكن لم يعرف أنّ هذا البرد أرحم مما تسوّل له نفسه.

لم يستطع الوصول إليها بتاتاً فهي امرأة عنيدة، ليس كلّ شاب يجرؤ على اقتحام حياتها. حياتها الآن ملك لها ولطفلتها الصغيرة.

جاءها أخيراً عبد العزيز منقذها وملجئها الوحيد في بلاد تطأها قدمها للمرّة الأولى، أدرك من نظرات الخوف التي تطلّ من عينيها ونظرات العتب ما كان سيقدم عليه صديقه وكلّ ظنه أنه أقدم على أمرٍ كهذا وانتهى الأمر.

تشاجرا سويّة بسببها، تبادلا أفظع الشتائم والإهانات ، كلّ واحداً منهما اتهم الآخر بأسوأ الصفات التي ما كانت لتنسب لهم لولاها. ولأوّل مرّة يتشاجر الصديقان هكذا من أجل امرأة لم يعرفاها من قبل. من أجل امرأة ستصبح ماض حينما ترحل عنهما.

أخذها عبد العزيز رغماً عن صديقه الذي شقّ عليه الأمر فلم يظفر بها بعد. نزل بها قريته الصغيرة (بدّاما) وجد نفسه وبدون مقدّمات مسؤول عنها وعن طفلتها الصغيرة. قطع العهود لنفسه أن يدخلها الأراضي التركيّة ولن يتركها مع أي ذئب بشري. هناك كان والده العجوز ووالدته ينتظرانه حين دخل إليهم

وعرّفهـا علــى أنّهـا مجـرّد لاجئــة تنتظـر فيهـا دخـول تركيّا.

نامـت الليـل بـالقرب مـن والدتـه فـي غرفـة صـغيرة في الطـابق الأعلـى ونـام هـو مـع والـده فـي الأسـفل. كـان البيـت عبـارة عـن غرفتــان قـديمتان جـدّا ومهترئتــان، تلعب الريح بنوافذهم المكسورة كما تشاء وترغب.

فــي الصــباح تنــاولا طعــام الإفطــار ليأخــذها إلــى منطقــة جديــدة، منطقــة قضــت فيهــا أكبــر مغامراتهــا وأطولهم،(الحمبوشــية) هكــذا كــان اســمها ولــم يتغيّــر أبـداً، معقـل المهـرّبين، معقـل عصـاباتهم. المافيـا الكبيـرة تقطـن هنــا، وتتــوزع علــى طـول الجبـال بيـوت صـغيرة يقطـن فيهـا أنـاس مـراد تهـريبهم، كـان كـلّ بيـت بداخلـه

لأنني لاجئة

لا يقلّ عن ثلاثمئة إنسان من شيوخ ورجال ونساء وأغلبيتهم أطفال.

في منزلٍ مؤلّف من غرفتين وصالة فقط جلست خمسة عشرة يوماً تنتظر فيهم دخولها إلى تركيا. عائلات كثيرة تأتي إلى هذا البيت وعائلات أخرى تغادر. (دمشق، حلب، ادلب، العراق) ضمّهم بيت واحد، ألم واحد، رحلات واحدة، تعب وعذاب واحد. أفواج بالعشرات تأتي وأفواج بالمئات تتأهّب للمغادرة.

ومن يرحل لن يعود إلى ذات البيت حتى وإن لم تكلل رحلته بالنجاح.

لا تستعجلوا بوضع إشارات استفهام فوق رؤوسكم. سأخبركم لماذا إن تريّثتم قليلاً؟.

المهرّب إنسان ذكي وحاذق، يعرف كيف يسيّر عمله بطريقة احترافية رائعة، حيث تخرج مجموعة وعددها تتجاوز المائة. منهم من ينجو بنفسه ويدخل الحدود التركية ومنهم سوء حظّه يدفعه للعودة. أصوات أقدامهم كفيلة لجذب الجيش التركي من كلّ حدب وصوب وإن كان في منتصف أنقرة. فكيف إذاً أصواتهم وبكاء أطفالهم؟

حين تعود المجموعة الفاشلة يتم توزيعهم على البيوت الأخرى، وبذلك يوهم المجموعات التي لم تخرج بأنّ تلك دخلت قد وأصبحت في منتصف تركيّا، وبذلك يكون قد نجح في خطّته حيث أنّ كلّ من تبقّى من أفراد المجموعة يرغب وبشدّة البقاء معه إلى أن يبتسم لهم الحظ بالعبور . وإن تعبوا وما عاد

بمقدورهم المحاولة أكثر عادوا إلى أوطانهم الصغيرة محمّلين بذكريات لن تمحى من ذاكرتهم بالأمر اليسير.

هنا مقرّ نورة الجديد حيث جلست فيه وتعرّفت على غيرها وشاركتهم الطعام والآلام والمنامة. وميّزت واحدة فقط من كل تلك المجموعات، واحدة فقط من بقيت معها إلى الأبد واحتفظت بها وجعلتها صديقة الرحلات، شريكة في العذاب. واحدة فقط كانت أخت لها في السرّاء والضرّاء.

ياسمين هو اسمها وكانت كالياسمين في تفتّحه، فواحة كعبيره، لم تأخذ منه فقط اسمه بل أخذت منه الطيبة والمحبّة والنقاء والجمال. كانت صامدة

كقاسيون، حنونة كأحياء الشام القديمة، طيّبة كبردى، كيف لا وهي دمشقية المنشأ.

لهذه الياسمينة ثلاثة أولاد، أكبرهم فتاة في الرابعة عشر من عمرها وأوسطهم في السادسة من عمره وأصغرهم في الرابعة من عمره، وكان زوجها في الدنمارك. أرادت اللحاق به وإن تعرّضت لمختلف الأخطار. لن يحيد أملها قيد أنملة واحدة، ستصل إلى مبتغاها عاجلاً كان أم آجلاً. لم تعد تفكّر بالوقت ولم يعد يهمّها ما مضى من وقت هنا. همّها الوحيد أن تصل إلى وجهتها مهما تأخّرت الأيام. فلها موعداً هناك لن تخلفه.

منحت لنورة الأمل الذي فقدته ووعدتها أن تبقى إلى جانبها أخت وأم ورفيقة وصديقة. ملاكٌ آخر بعثه

الربّ لنورة ليحميها من ذئاب لا تعرف الحبّ والرحمة. تحدّثتا في أمورٍ كثيرة، ملتّهما الأحاديث ولم يملّا. ولأوّل مرة تسمح نورة لأحدهم باقتحام حياتها والتحدّث عن مالك وعن موته الذي باتت تعتبره أمراً حصل ولا مجال لنكران الحقيقة.

في تلك الأيّام هناك قرب تلك المنطقة المحاطة بأشجار الزيتون كبرت علاقتها مع عبد العزيز ونمت بعد أن سقاها حناناً وعطفاً وحبّاً. اعتبرته السند والأخ حيث حماها من الوحوش البشريّة عدة مرّات، كان لها ملاكاً حارساً في غربتها. أينما نادته وجدته بجوارها يزيل من حولها أشواك الشرّ بيديه الدافئتين، ولكنّه لم يعتبرها أخت اعتبرها حبّ حياته المنتهي بعقد من الورق المكلل بزواج ومباركة من الجميع.

رفضته كثيراً فلا حبّ بعد حبّها لمالك. لم ييأس ولم ينفر منها بل غار من مالك لأنّه كان السبّاق إلى قلب نورة. لا يجوز لأيّ كان أن يجلس في قلبها ويزيح مالك منه وإن كان هذا الشخص هو عبد العزيز، سيبقى له مكان في القلب صغير ويبقى المكان الأكبر لمالك وحده.

خرجت من تلك المنطقة أربع مرّات، عن طريق جبلٍ فيه عدّة فتحات ولكل فتحة رقم، أغلب رحلاتهم عن طريق فتحة السبع وسبعون. كان الأتراك قد رقموهم ومشت هذه الأرقام بين رجال إدلب ومهرّبيهم، فكانوا أحياناً يدخلون من الفتحة ذات الرقم السبع وسبعون وأحياناً من الفتحة ذات الرقم التسع وسبعون.

أمسك الجيش التركي بهم هناك، وكان حينها عبد العزيز ممسكاً بيدها بقوّة وعلى كتفيه صغيرتها شهد. أخبرتهم هناك حين بدأ التحقيق أنّه زوجها كي تنقذه من رحلة عذاب ومن رحلة إلى العالم الآخر.

ظلّوا طوال الليل في السجن وهو عبارة عن خيمة كبيرة تحتوي الجميع دون تفريق بين الرجال والنساء. كان الليل طويلاً للغاية وكلّ ساعةٍ تأتي زمرة جديدة تُضاف إلى الخيمة الكبيرة حتّى لم يبق في الهزيع الأخير من الليل مكاناً تطأه أقدام المهاجرين في تلك الخيمة. خرج الرجال إلى أحضان البرد القارس وترك المجال للنساء والأطفال. جاء الصباح أخيراً محمّلاً أوجاعاً جديدة وآلامٍ قاسية عليهم، جاءت سيّارات كثر فركب الجميع فيها دون استثناء لأحد وأعادتهم إلى

وطنهم فلا مكان لهم في بلدٍ لا يعترف بالعربيّة، رجعوا إلى سورية يجرّون ورائهم حفنات من ذكرياتِ مؤلمة عن ليلة طالت وانتهت.

بدأت تدور في رحلة عذاب أكبر من سابقتها. حيث بدأت الطائرات الكثيفة تحوم في السماء مستهدفة المجموعات الإرهابية وكان يصلهم شيئاً من قنابلها.

كانت الطائرة تتبعها أينما حلّت وارتحلت، وكأنّها تريد القصاص منها، تريد الانتقام لدمشق لأنّها غادرتها دون وداعها.

أيعقل أن يكون مالك قد اشتاق لها فأرسل بأثرها؟ أو ربّما غار من عبد العزيز حيث رآه سيحلّ في قلب نورة بدلا منه. لكنها أرادت أن تحتفظ بمالك

في قلبها فقط. لم ترد اللحاق به بتاتاً، لن تترك شهد لوحدها هنا. ولن تسمح لها أن ترحل من حضنها كما رحل مالك من قبل. كانت تخبّئ رأسها بين يديها وتبكي. فيحتضنها عبد العزيز ليشعرها بقليل من الأمان .

لم يكن لها من صديقة هناك سوى ياسمين وكأنّ الشام أحبّت أن ترسل لها بمندوبة عنها ترافقها في رحلاتها الخطرة يفوح منها شذا ياسمين دمشق وتعبق منها رائحة بيوت الشام العتيقة.

كانت تبثّها خوفها الذي لم تجرؤ أن تخرجه للعلن ولكن مع ياسمين كان الوضع مختلف، حيث اشتركتا بالخوف والمخاطر والرحلات الجبلية

المستحيلة الصعود. تقاسمن الخبز والجبن وحتّى المحن.

عشرة أيّاماً وهم قابعون في البيت لا يخرجوا في أيّ رحلة بسبب تضييق الجنود الأتراك على الحدود، حيث كان وقتها القتل هو السائد. وساد الهرج والمرج بين صفوف المهاجرين من جهة وصفوف المهرّبين من جهة أخرى. المهاجرون يتّهمون المهربين بالتقصير وهناك عدّة طرق بإمكانهم الدخول منها. وأولئك يدافعون عن أنفسهم بشتّى الوسائل حيث تقام معارك شرسة على الحدود.

كان الجانب التركي في ذلك الوقت رافض أيّ لاجئ سوري جديد على أراضيه وكأنّها أراض مقدّسة وخائفون عليها من التدنيس. حتّى وإن كان

هارباً من الموت فهذا ليس بعذر فليمت في وطنه. لن تفتح الحدود من أجل إنسان.

ناموا جميعاً ليستيقظوا على صوت أفزعهم جميعاً (بوووووووووم) كان الصاروخ قد وقع على مقربة من البيت القاطنين فيه. هلع من في البيت حيث أيقظهم ذاك الصاروخ دون أن يقدّم اعتذاراً لهؤلاء الضعفاء، وكأنّه لم يفعل أي شيء يذكر. فقط فتح فتحة كبيرة في الأرض تتسع لبناء كبير .

هربت نورة من تلك المنطقة لترحل لوحدها وتترك ياسمين بعد أن ودّعتها على عجل قبل أن يفاجئها صاروخ آخر. كانت وجهتها الجديدة (جسر الشغور) وهناك كان الخوف مضاعف حيث ازداد حجم الخطر أضعافاً مضاعفة. كان الدمار فظيعاً جدّاً، كلّ الأبنية

ساجدة تشكو لخالقها العبث بجدرانها وهجرة أحبّتها. عادت لتواصل رحلة هروبها إلى (تلميس ثم الزعينية ثم الحمبوشية) عادت إليها حيث وجدتها أقلّ خطراً من سواها وأكثرها تعاملاً مع الأزمة باعتياد واضح وملل من صواريخها الكثيرة. فاليوم الذي لم تنزل فيه قذيفة واحدة يسألون عن السبب وكأنّهم اعتادوا عليها وباتوا لا يقبلون العيش دون صفيرها المتواصل.

وجدت ياسمين في انتظارها جالسة واضعة يدها على خدّها الأيسر تنتظر الفرج والذي بات قريباً منهم، هكذا كان الأمل يداعبهم ولكن سرعان ما يصبح هذا الفرج صعب المنال.

كانــت المجموعــات تجهّــز لرحلــة جديــدة تختلــف عــن ســابقاتها، حيــث أرادوا أن تكــون كبيــرة جــدّاً ولا يهمّهــم إن دخلــوا أم لا. يكفــيهم أن يــدخل أنــاس بعــدد أصــابع يــدهم اليمنــى. وصــلت تلــك السـيّارة الكبيــرة البيضــاء التــي كانــت مخصصــة لحمــل الماشــية ولا فــرق بــين مــا تحملــه الآن ومــا حملتــه مــن قبــل، إذ كــانوا هــؤلاء يعــاملون النــاس معاملــة المواشــي فــي كــلّ شــيء. ركــب فيهــا أكثــر مــن خمســين شــخص، كانــت مغطّــاة بغطــاء أبــيض كــي لا تلمحــه المجموعــات المســلّحة، فــالخروج إلــى تلــك الــبلاد فــي نظــرهم هــو الكفــر بعينــه، وكــأنهم يخلعــون عبــاءة الإســلام حــال خــروجهم مــن بلادهــم . لــم يجــرؤ أحــد علــى الاقتــراب مــن مــواقعهم فكــانوا يســتعملون أصــعب الطــرق وأبعــدها عــن هــدفهم

كـي لا يلتقـوا بهـم. لا أدري مـاذا كـانوا سـيفعلون بهـم؟ ولكن حتماً ما سيفعلونه لا يبشر بالخير.

مشـوا علـى ذاك الجبـل الطويـل، وصـلوا إلـى نهـر العاصـي فـي جـنح الليـل مختبـئ. لـم يـره أحـد ولـم ينبّـه لوجـوده سـوى هـديره الصـاخب الغاضـب. كـادت نـورة أن تتعثّـر فهـبّ شـاب وأخـذ منهـا صـغيرتها مـن بـين يـديها وأمسـك بيـدها يسـاعدها علـى السـير ، هنـا فـي رحلتهـا هـذه غـاب عبـد العزيـز ليحـلّ محلّـه هـذا الشـاب ويأخـذ بيـدها إلـى الأعلـى. اجتـازت النهـر مـع مجموعتهـا الجديـدة علـى جسـر حديـدي ضـيّق بالكـاد يقـف عليـه أحـدهم فيتـراقص مـن أسـفل قدميـه. ولكـن لا مجـال هنـا لزلّـة قـدم ولا مجـال لخطـأ يترتـب عليهـا حيـاة أحـدهم.

كـان علـى جانبـه الأيمـن حبـل طويـل وضـع خصيصـاً للمارّة كي يتشبّثوا به عند الذهاب والإياب.

انتهـى الكـابوس الأوّل حـين اجتـازوا النهـر الهـادر، وسـاعدت نـورة ياسـمين فـي اجتيـازه حيـث أخـذت منهـا أطفالهـا. هنـا فـي هـذه الرحلـةمعها حكايـات تـروى وخيبـات تحكـى. كـان عـدد أفـراد المجموعـة قـد تجـاوز المئتـان، لـم تكـن سيارتهم فقـط هـي مـن جـاءت إلـى هنـا محمّلـة بالبشـر بـل تبعهـا ثـلاث سـيارات أخـرى لهـا النظـام ذاتـه فـي حمـل المهـاجرين إلـى هنـا. كـانوا عراقيـون وسـوريون، جمـيعهم ربطهـم مصـير واحـد وجبـل واحـد عليهم تسلّقه والسـير علـى حوافـه. كالعـادة الصـعود عليـه مرهقـاً ومتعبـاً وشـاقّاً ولكـن مـا باليـد حيلـة سيصـعدونه حتّـى لـو كـان شـوكاً تحـت أقـدامهم. وصـلوا

قرابة الساعة الثانية صباحاً إلى الحدود، وكانوا قد خرجوا في الساعة الثامنة مساء. هناك جلسوا يلفّهم صقيع مارس من الجهات الأربع، حيث كانوا ينتظرون الإشارة من الجبل الآخر ليدخلوا تركيا فاتحينها ومستعمرينها.

كان القائد المسؤول عنهم يجلس ومعه منظاره على الجبل المقابل للفتحة المراد الدخول منها، ينتظر أن يبتعد ذاك الجندي عنها لأداء مهمّة صغيرة كالتبوّل مثلاً ليخابرهم فوراً عبر جهازه اللاسلكي ويأمرهم بالدخول السريع. حينئذ يدخلون جماعات متفرقة ، إن أمسكوا المجموعة الأولى تعود باقي المجموعات أدراجها. وإن لم تعد فالدرب مفتوح للجميع بالدخول. ولكن ربّما أُمسكت المجموعة الثانية

فيما لاذت الأولى بالفرار داخل الأراضي التركية. فهذا ليس قانوناً يسيرون عليه وإنّما بصدفة من القدر وضربة حظ ليس إلّا.

هناك على الحدود ازداد الجبل صعوبة. لم تستطع نورة تحمّل قسوته، كان واقفٌ كرجلٍ غادر، أملس في ظاهره وعلى حافتيه نمت شجيرات شوكيّة، طلب منها الشاب بعد أن أعطاها صغيرتها أن تجلس قليلاً ريثما تبدأ المجموعات بالدخول باعتبار بكاء شهد الصغيرة بسبب البرد أفزع البقية وخشوا أن يُمسك بهم بسبب طفلة رضيعة.

لم تقل شيئاً بل استجابت لطلبه في الحال. واستجاب هو لخنوعها فخلّفها خلفه ودخل هو والمجموعات جميعها بعد أن تركها في أسفل

الشجيرات الشوكية حيث لا تراهم ولا يرونها. اختفت المروءة والشهامة هنا في جبال إدلب وشهدت عليهم فيما فعلوه بها في حين لم يكن أحد منهم شاهداً علام حدث، كيف تركها وحيدة في الساعة الثانية فجراً مع طفلة رضيعة؟ النزول إلى الأسفل صعب والصعود لهو المستحيل بعينه.

غاب عنها أصواتهم وهمساتهم، وضعت صغيرتها في جعبتها وانطلقت خلفهم لاهثة، ولكنهم كانوا قد سبقوها بأشواطٍ كثيرةٍ. بكل ما أوتيت من قوّة صعدت خلفهم وشتاء مارس يقطّر عليها من عليائه. وقفت فوق الشارع التركي وكانت هذه أمنيتها أن تدخل تركيا ولكن الخوف اقتحم قلبها ومنعها أن تخطو إلى الأمام خطوة. كان الظلام سيّد الموقف

آنـذاك والـريح تلعب بالأشـجار كيفمـا تشـاء وتصـدر فـي كـلّ ثانيــة صــفيرٍ مــوحش يــردد أصــداؤه فــي الجبــال العاليـة ليبتلعـه النهـر فـي الأسـفل. نـادت علـى (الدلّيلـة) وكانـت تعـرف أسـماءهم فعـاد صـدى صـوتها يـذكّرها أنّهـا الآن وحيـدة فـي جبـال قاسـية لـن تأبـه لضـعفها. عـادت تخفـي دمعتهـا فـي جـنح الليـل، فـي ليـلٍ غـاب فيـه قمـره ونجومـــه. ولكـــن... هنـــا بالتحديـــد لا مجـــال لبكـــاء لا ترجـو منـه فائـدة ولا مجـال لصـراخ يجلـب لهـا ذئـاب بشرية لن ترحمها.

قالـــت فـــي نفســـها:" كفكفـــي دمعتـــك يـــا صـــغيرتي وانهضـي، وانفضـي عـن كاهليـك غبـار المحـن وانهضـي لتكـوني الرجـل فـي روحـك وامـرأة فـي جسـدك"، وجاءتهـا طاقــة هائلــة لا تــدري مصــدرها. عــادت أدراجهــا بقلــب

شجاع لا يهاب الصعاب وحاولت جاهدة أن تستذكر طريق العودة. حاولت عصر مخّها ليأتيها بأكثر النتائج ايجابية ولكن في لحظة كهذه حتى المخ خذلها.

بدأت رحلتها لوحدها، تجلس على الأرض وتتزحلق وكأنّها تلعب لعبة التزحلق. هذا كان أهون عليها من النزول واقفة خشية الوقوع إلى أسفل الوادي، كان هناك أربعة اتجاهات. من خلفها الجانب التركي وبقية الاتجاهات مجهولة. وأخيراً وصلت إلى النهر واجتازته دون مساعدة أحد. تذكّرت عبد العزيز فلو كان معها لما حصل معها ما حصل. كان يخاف عليها من مطر مارس، فكيف لو عرف ما حدث معها. لما كان سيسكت إطلاقاً عن شرٍ كهذا بحق

نـورة. لـم تعـرف إلـى أيـن تكمـل طريقهـا بعـد أن اجتـازت النهـر؟ فكـل الـدروب قـد أغلقـت فـي وجههـا. وكأنـه لـم يفتح طريق من هنا من قبل. إذاً من أين مرّوا؟

وجـدت نفسـها فـي دوامـة الخـروج منهـا أشـبه بالمسـتحيل، الجبـال العاليـة الخضـراء تحـيط بهـا مـن كـلّ جانـب وهـي فـي الـوادي بجانـب النهـر لا تعـرف إلـى أيـن تتجـه؟ كانـت السـماء تبكـي عليهـا وعلـى صـغيرتها، لـم يكـن مطـراً بقـدر مـا كـان قهـرا تسكبه السـماء عليهـا، لـم يكـن مطـر مـارس فـي لحظتهـا قـاس ولأوّل مـرة تتعـاطف معهـا الطبيعـة ولكـن قطراتـه فـي تلـك اللحظـات لـم تكـن بحاجـة لهـا، كانـت بحاجـة إلـى ضـوءٍ ينبعـث مـن السـماء يوصـلها إلـى رصـيف الأمـان. كانـت تلحـق أعقـاب السـجائر لتعـرف أيّ طريـق كـان محطّـة لأقـدام

المهــاجرين فيمــا مضــى، وحــين كانــت قــدماها تأخــذها لطريــق مجهــول لــيس فيــه شــيء تعــود أدراجهــا لتجــد ذاتهــا فــي الدوّامــة نفســها ولــم تتحــرّك قيــد أنملــة مــن مكانها.

وحــين وصــلت إلــى جبــل كبيــر ســدّ فــي وجههــا جميــع المنافــذ. الصــعود عليــه هــو المســتحيل بعينــه. وكأنــه واقــف كالمــارد يهــزأ بضــعفها وجراحهــا المتراكمــة. جلســت علــى تلّــة صــغيرة تنتظــر بــزوغ الفجــر، تنتظــر فــرج مــن أعــالي الســماء يهطــل عليهــا. تنتظــر المهــاجرين وعــودتهم إلــى نفــس المكــان، وإن تــأخروا فهــذا طــريقهم لا محالــة. ولكــن لا مجــال لهــا ســوى الصــبر والتريّــث والتســلّح بالأمــل. وحــده منقــذها مــن وضــعٍ كهــذا. حمــدت ربّهــا لأنهــا لــم تســمع زئيــر الوحــوش

وأزيــز الرصــاص. كانــت الوحــوش جميعهــا قــد هربــت بدورها إلى الجانب التركي بسبب معارك لا تنته .

خبّـأت وجــه شــهد بمعطفهــا لتقيهــا زخّــات المطــر والتــي تتكـاثف ثـم سرعان مـا تقطّـر بضـع قطـرات وهكـذا. حتّــى شــبكة الهــاتف خــذلتها أيضــاَ. انقطعــت الشــبكة وانقطــع اتصــالها بالعــالم الخــارجي القــاطن خلــف جبــل مـن تلـك الجبـال. نصـف سـاعة بقيـت علـى هـذه الحالـة تترقـب شـيئاً علـى وشـك الحـدوث وربّمـا لـن يحـدث فـي وقـت قليـل. ولكـن الله معهـا. إن خـذلها الجميـع هـو لـن يخــذلها. جاءهــا قائــد عصــابة المهــرّبين إليهــا ونــادى باسـمها. أفاقـت علـى دمعـة انسـكبت مـن جحـيم واقعهـا الألــيم. أصــغت إلــى الصــوت كــان اســمها ولا شــك فــي ذلـك. نـادت عليـه بصـوت فيـه الأمـل كمـا فيـه الرجـاء. لـم

تكـن تسـتطيع النـزول مـن تلـك التلـة بسـبب حقيبتيهـا وصـغيرتها. جـاء إليهـا وأخـذ منهـا الصـغيرة وحمـل حقيبتيهـا. وعـادت معـه فـي السـيّارة محمّلـة بـالطين والوحـل وبـذكرى جديـدة تضـاف إلـى رصـيد الـذكريات عنـدها. ذكـرى لـن تنسـاها نـورة لا فـي المـدى القريـب ولا فـي المـدى البعيـد. أمـا آن لكـابوس إدلـب وجبالهـا الحمقاء أن تنتهي.

وصـلت إلـى البيـت الـذي خرجـت منـه وجلسـت بـالقرب مـن المـدفأة. لكـن لا مكـان لتبـدّل ثيابهـا أو تسـتحم فبقيـت كمـا هـي بطـين جبالهـا ووحلهـا. وفـي عصـر ذاك اليـوم عـادت المجموعـة التـي كانـت معهـا وأخبرتهـا ياسـمين بمـا حصـل معهـم حيـث أمسـكهم حـرس الحـدود فمـنهم مـن لاذ بـالفرار إلـى داخـل تركيّـا

ومنهم من هرب إلى سوريا وعاد إليها محتمياً خلف شجيرات زيتونها. ألم أقل لكم آلا أمان إلّا في وطننا.

وبدأت ياسمين تقصّ القصّة:

- ساعتان ونحن نسير بين الجبال، إلى وصلنا إلى مكان انقسمنا فيه إلى مجموعتين. أجلسونا قرب جبل ضخم ريثما يطلّ الفجر بنوره. كنا ننتظر في العراء والبرد يخيّم علينا إلى أن فاجئنا حشد من الجيش التركي وألقوا القبض علينا...

صمتت ياسمين ريثما تستعيد أنفاسها اللاهبة وتستذكر ما حدث. وبغصّة في القلب أكملت ما بدأت:

- لم يسمحوا لنا بالاسترخاء والراحة ولو قليلاً... أمرونا بالعودة سيراً على الأقدام وساروا خلفنا ومعهم بنادقهم المصوّبة نحونا. وكأنهم رأونا

نتآمر على دولتهم وبيدنا بنادق نريد تفجيرهم. ربما لو وجدونا في حالة كهذه لما عاملونا ذات المعاملة التي عُوملنا بها اليوم.

لم تستطع كتم دمعتها التي خرجت إلى العيان لتكمل سيرتها:

- اثنتا عشرة ساعة من السير المتواصل، لم يسمحوا لنا بالجلوس على حجرٍ واحد ولا حتّى بالتلكؤ في السير. وعند عودتنا ووصولنا إلى النهر وجدنا جثتين لمرأتين مجهولتي الهويّة قرب النهر.

شهقت نورة حين سمعت الجملة الأخيرة من ياسمين. كيف لم تلمحهم؟ أيعقل أن جنح الليل حزن عليها وأخفاهم عنها؟ كي لا تراهما وهي الوحيدة في تلك المنطقة. لو رأتهما لخافت أكثر وربّما أصابها

مسّ من الجنون. وحدّثت نورة ياسمين بكلّ ما جرى لها.

انقضت تلك الليلة وبقيت كما الندبة في ذاكرة نورة لن تمحى مع الأيام. مهما حصل ومهما عانقتها أيام رائعة ستبقى عالقة في ذهنها رافضة الخروج. وكلّما وقفت على عتبة ذاكرتها لتخرج شعرت حينها نورة بقشعريرة تدب في جسدها لتخفيها من جديد وتطمرها في أرشيف ذاكرتها.

لم تكن تلك الرحلة هي الصعبة على نورة بل كانت هناك رحلات صعبة ولكن صعوبتها أسهل من هذه الرحلة بكثير.

كرحلتهم التي دخلوا فيها أراضي تركيا وكانت القرية التركية تتموضع قبالتهم كالصحن على مائدة

كبيـرة. وكانــت آنــذاك فـرحتهم عظيمــة فأخمـدها الجـيش التركي حين أطلق كلابه عليهم تنبح في وجوههم.

وكـرحلتهم التــي دخلــوا تركيـا فيهـا ومشــوا حينهـا علـى حـرف جبـل بالكـاد يتّسـع لقـدمٍ واحـدة. ومـن غـربهم تتوضّــع براميـل كبيـرة وأسـلاك شـائكة. ومــع ذلــك كــان الخـوف يـدفعهم إلـى التمسّـك بتلـك الأسـلاك خوفـاً مـن وادٍ قـد يلـتهم أجسـادهم. وعلـى شـمالهم تكمـن المصـيبة الكبـرى وادٍ كبيـر يتمنـى اسـتقبالهم فـي جوفـه. جـائعٌ باحــثٌ عـن أجســادٍ صـغيرة تائهــة يلتهمهــا فــي بطنــه الكبيــر. ومــن أسـفل أقـدامهم الطـين والوحــل والرمــل الأبـيض تدوسـه أقـدامهم فيبقـى عالقـاً بهمـا. كـان صـياح النسـوة وبكـاء الأطفـال مسـموع. ومـا إن خرجـوا حينهـا مـن هـذا المـأزق وعبـروا الشـارع حتّـى جـاءتهم مجموعـة

صغيرة من الجيش التركي وأمروهم بالجلوس على الأرض ريثما تصعد باقي المجموعة التي معهم. كان الجيش يراقبهم ساعة عبورهم النهر وكان لهم بالمرصاد.

في رحلتهم تلك لم يكن مطر مارس رحيماً بتاتاً بل كان قاسياً جداً. وكأن أمطاره لم تنسكب منذ زمن بعيد. وبدأت مياهه تسيل كما النهر في مجراه. حيث التحمت بنهر العاصي وكأنها نشأت منه. أعلنت النجوم لجوئها إلى سماءٍ أخرى حيث هربت بدورها من سماءهم فجعلت الظلام هو السائد آنذاك. واستوطنت مكانها سحب سوداء كثيفة لا تُرِ بسبب الأمطار الغزيرة. وكان الرعد صاخباً وكأنّ السماء غاضبة وكأن تلك الأصوات ما هي إلا أصوات

صواريخ تحدثها طائرة حربية. وكان البرق يضيء السماء والجبال بأكملها نيابة عن نجومه الهاربة ليختفي هرباً من زمجرة الرعد الصاخبة.

وفوق كل ما يحدث في السماء إلّا أن ذلك لم يمنعهم من تفتيش حقائبهم ورميها في الشارع بما تحتويه الحقائب النسائية ودون مراعاة للخصوصيّة. وبعد انتهائهم من فعلهم المشين هذا أمروا الجميع بلملمة أشياءهم. وبعدها قادوهم كالماشية إلى سجن وهو عبارة عن خيمة كبيرة مصنوعة من غطاء بلاستيكي . كانت أرضها مصنوعة من الخشب وتحت الخشب رمل وحجارة. وكانت مكتظّة بالنساء والرجال ممن ألقي القبض عليهم. الأغطية خفيفة جدّاً وقليلة. أخذوها ووضعوها على الأطفال الصغار. البرد قاسياً

إلـى أبعـد حـدّ، ومـن منّـا يحتمـل بـرد مـارس وهـو نهايـة الشتاء؟ فكلّ البرد قد تجمّع في أيامه ولياليه.

لـم يـنم أحـد ليلتهـا بسـبب اقتحـام البـرد لخيمـتهم هـذه وأمـرهم بـالتقوقع جانبـاً، يلتمسـون الـدفء ولا يجـدون لـه سـبيلاً. كانـت الـريح تحـاول اقـتلاع حصـنهم المتحصّـنين بـه ألا وهـو خيمـتهم الباليـة وتسـاعدها فـي ذلك أمطار قاسية كقسوة هؤلاء الجنود.

جـاءت الحافلـة فـي الصـباح بعـد أن سـكنت الـريح وهـدأت الحيـاة. هـدأ جنونهـا. لـم تأخـذهم إلـى معبـر بـاب الهـوى. بـل أخـذتهم إلـى الفتحـة ذاتهـا التـي دخلوهـا وأمروهم بالعودة سيراً على أقدامهم.

مـا أكرمـه مـن وطـن! كـم مـرّة فـتح لهـم ذراعيـه حـين عـادوا إليـه خـائبين. لـم يجـدوا حضـن يحمـيهم كمـا فعـل

وطـنهم. مهمـا سـافروا والتجـؤوا فـي بـلاد عديـدة وحـدها سـورية تبقـى أمّهـم الحنونـة الواقفـة بشـموخ تنتظـر عـودتهم إليهـا... راكضـين ومختبئـين فـي حنايـا زهورهـا وشـجرات لوزهـا وتينهـا وزيتونهـا. حتّـى الأمـان لا يستطاب إلا بوطننا.

لـم تكـن هـذه المـرّة هـي الوحيـدة التـي تنـام فيهـا نـورة تحـت سـماء تركيّـا فـي خيمـة صـغيرة تعـجّ بالمهـاجرين. بـل كانـت هنـاك مـرّة أخـرى، حيـث جرّبـت هنـاك طعـم سـجن مختلـف، حـين خرجـت مـن منطقـة دركوش يصحبها في رحلتها تلك عبد العزيز.

اثنتـا عشـر سـاعة وهـم يسـيرون فـي طرقـات متعرّجـة فـي الجبـال لـيلاً. لـم يكـن الجبـل صـعباً ككـل الجبـال ولكنّـه كـان طويـلٌ وشـاقّ وكانـت أقـدامهم تغـوص

فــي مســتنقعات مــن وحــل، مليئــة ببيــوت حيــوان الخلــد. إذ تلــك المنطقــة مخصّصــة لهــم قبــل أن يكتشــفها الإنســان ويجعلهــا طــرق جديــدة للتهريــب. ولــم تعترضــهم بيــوت المناجــذ فقــط بــل مــا اعتــرض طــريقهم وجعلــه خطــراً هــو وجــود كومــة مــن النباتــات الصــحراوية، حــين يدوســون عليهــا يهــوون إلــى وادٍ عميــق. حيــث الثعالــب قــد حفــرت بيوتــاً علــى شــكل أوديــة تحتمــي فيهــا مــن بــرد الشــتاء. وكأنّــه فــخ نصــب لهــم، ومــا يــدريهم أيــن يجــب أن تــدوس أقــدامهم علــى بيــوت المناجــذ. أم علــى كومــة النباتــات تلــك والتــي تحتهــا لا شــيء ســوى وادٍ كبيــر. ربّمــا بداخلــه ثعالــب وربّمــا يكــون قــد هُجــر منــذ فترة قليلة.

دخلوا تركيّا حينها بعد عناء طويل ولكن تمّ القبض عليهم فيها وساقوهم كالنعاج إلى خيمة صغيرة مخصصة للنساء فقط. أمّا الرجال فمكانهم هو العراء لا مجال لبقائهم في تلك الخيمة الصغيرة. لم ينم أحد ليلتها بسبب ضيق المكان وازدحامه، وفي كلّ ساعة كانت تأتيهم مجموعة جديدة من المهاجرين غير الشرعيين.

وفي رحلتهم الأخيرة التي خرجوا منها وقد غاب عنهم الأمل ولجأ إلى قلوب أخرى لا تعرف اليأس مطلقاً.

في الساعة الثانية صباحاً أيقظوهم ليأمروهم بالجلوس في سيّارات المواشي. وما إن يجلسوا فيها حتّى يطبّق عليهم قانون الماشية من إهانات وشتائم

تطـال الجدّ الأكبـر. والصـراخ والصـياح فـي وجـوه النسـوة وأطفالهم. إن بكى طفل أو تلكأت امرأة.

كانـــت رحلـــة مســـتنقعات لا ثعالـــب ولا مناجـــذ. يخرجـون مـن مسـتنقع صـغير ليفـاجئهم مسـتنقع أكبـر منـــه. وكـأنّ مسـتنقعات العـالم جميعهـا تموضـعت فـي هذا المكان.

وصـلت السـيّارة إلـى الهـدف المنشـود، نزلـوا منهـا وأملـوا علـيهم سلسـلة القـوانين والتـي حفظوهـا غيبـاً. وصـــار المهـــاجرين الأقـــدم يملوهـــا علـــى المهـــاجرين الجدد.

ســاروا قرابــة الســاعتين علــى غيــر هــدى يتبعــون بعضـاً مـن الشـبان. وفاجـأهم جبـل عمـلاق واقـف يهـزأ بهـم وبثيـابهم الرثّـة. ولكـنهم هـزؤوا بـه حـين صـعدوه

وإن كـان شـاقّاً فـلا جبـل يقـف فـي وجههـم وإن كـان جبـل لبركان وبداخله حمماً تغلي.

كانـــت نـــورة فـــي هـــذه الأثنـــاء تحمـــل شـــهد فـــي جعبتهـــا وعلـــى كتفيهـــا حقيبتهـــا وفـــي يـــدها حقيبـــة طفلتهـــا. وكانـــت ياســـمين تمســـك أطفالهـــا الـــثلاث خشـــية وقوعهم في وادٍ لن تلمح لهم جثّة ولا جسد.

غابـــت الرحمـــة فـــي قلـــوب (الدلّيلـــة) لـــم يســـاعدوا امـــرأة أو طفـــل وكـــأنّ الأمـــر لا يعنـــيهم. بـــل كانـــت المـــرأة التي تتباطأ تُنعت بأسوأ الألفاظ وأقبح الألفاظ .

وصـــلوا الحـــدود، علـــى ســـفح الجبـــل جلســـوا منتظـــرين الفـــرج مـــن ربّ الســـماء. وكانـــت تلـــك آخـــر ليلـــة فـــي شـــهر أذار "مـــارس". أيعقـــل أن ينتهـــي مـــارس ويرحـــل فيأخـــذ

كوابيسهم معه؟ أم سيأخذ فقط أحلامهم ويرحل إلى الذاكرة؟

في السادسة صباحاً حان وقت التبديل بين الجنود الأتراك، وفرغت الفتحة من أيّ جندي كان فيها، وصار الوقت مناسباً للاقتحام دون الالتفات للوراء.

بأعدادٍ كبيرةٍ دخلوها دون أن يراهم أحد فيمنعهم. ومشوا قرابة الثلاث ساعات بين الجبال إلى أن أنهكهم الإرهاق وأضناهم الجوع والعطش. ولم تحتمل أقدامهم الوقوف أكثر فخارت وانهارت على الأرض جاثية تطالب جلّادها باستراحة قصيرة تشحذ فيها همّتها المنهارة، وبعدها تستكمل المسير إلى مجهولٍ جديد. فأعطوهم الأذن وليتهم ما منحوهم إياه، حيث

أجلسوهم على الشوك فلا مكانٍ آخر ليجلسوهم عليه. كانت الأرض مغطّاة بأشواك لا تنته . وكالعادة ممنوع أن ينبسوا ببنت شفة لأنّهم الآن في قلب القرية التركيّة. في قلب الخطر الأكبر والأمل العظيم.

بدت سورية من خلفهم أجمل وأشهى مما كانت عليه لحظة هروبهم منها، كلوحة رسمها فنّان شرقيّ محترف وأبدع فيها.

بدت عنيدة، شامخة رافعة رأسها للشمس غير مبالية بالسهام التي أدمت جسدها ولم تنل منها، حزينة على من غادرها أكثر من حزنها على من التحم جسده بجسدها لتكبر وتنمو وتبزغ كشعاع نجم وحيد لن يخمد .

لأنني لاجئة

كانت تتناهى إلى سمعهم بين الآونة والأخرى أزيز الرصاص ودوي المدافع وهو يفتك بها، ولكنّها كانت كأنثى في العشرين من عمرها، آلاف السهام تصيبها في ظهرها وما تزال كما عرفوها وعاشوا في كنفها وتعّلموا الصمود منها جبّارة قوية فاتحة أحضانها لضمّ أبنائها إلى حضنها الحنون لم تفكّر يوماً أن ينزعوا السهام عنها ويشفوا جراحها النازفة؛ أو يساندوها في محنتها ويواسوها في مصابها الجلل.

وأخيراً نزلت دمعة نورة ولم تمسحها بل تركتها تنساب على أرضٍ لن تراها مجدّداً، ووطن منحها الكثير وفي لحظة ضعف هربت منه بكت وشهقت من قلبها على وطنٍ فارقته وربّما لن تسعفها الأيّام بالعودة إليه، مع أنّها كانت ترغب في الهروب منه إلّا

لأنني لاجئة

أنهـا تبقـى مفارقـة الـوطن شـيء لـن تحتملـه جبـابرة الأرض كلّها،بكـت لأنهـا فارقتـه جسـداً ولـم تفارقـه روحاً، بقي في فؤادها قابع وأدمى ذاكرتها.

بكـت لأنهـا اسـتطاعت أن تصـمد دون أن تنهـار، أنهـا قاومـت الأخطـار والصـعاب والبـرد والأمطـار لوحـدها، انتهـى الكـابوس بنظرهـا ولـم تكـن تـدري أن الكـوابيس الحقيقيـة لـم تبـدأ بعـد. خرجـت مـن متاهـة صغرى لتدخل متاهة أكبر.

تركـت إدلـب أخيـراً حيـث كـان الاغتصـاب والسـرقة سـائدين، وفيهـا العصـابات التـي تسـرح ولا تخـاف مـن الله. ثيـابهم سـوداء كقلـوبهم، شـعارهم الـدين ولا يفقهون من الدين شيء.

لأنني لاجئة

هربـت مـن حـربٍ كبيـرة بنظرهـا لكـن وجـدتها أصـغر مـن الحـروب الأخـرى، وقعـت فـي حـربٍ شرسـة، تقاتـل لوحـدها أفئـدة مـن حجـر. دخلـت حـرب لا نجـاة منهـا . حرب فاقت كلّ الحروب.

ودّعــت ســورية بعبــرات انســكبت علــى خــديها أنهــاراً. ودّعـت مـن ظنّـت آلا أمـان فيهـا. لتهـرب إلـى مدنٍ لم تخلق للأمان يوماً.

وبـدأت رحلـة هروبهـا الجديـدة مـن تركيّـا.. هنـاك حيث لا جبال للهروب بل بحر عميق المياه.

خلّفـت عبـد العزيـز ورائهـا يبحـث عـن غيرهـا فـي الجبـال يرسـلها إلـى رصـيف الأمـان، تركتـه لغيرهـا دون أن تفكّـر بـه لمـا سـاعدها؟ ومـا هـي غايتـه؟ دون أن

تشكره هربت من بين أنامله وهي تفكّر بالمستقبل، فلا وقت لديها لعبث أحلامٍ لا فائدة ترجى منها.

*   *   *   *   *

لأنني لاجئة

ــ ٤ ــ

ـ أيهـــا العـــابرون عبـــر الحـــدود إلـــى أرض لـــم تعرفوهـــا يومـــاً أمـــا يمكـــنكم الالتفـــات ولـــو قلـــيلاً؟ إلـــى شـجيرات الزيتـون التـي نمـت، مـن خلفكـم شـجيرات أخـرى تنتظر أن منكم سقايتها.

ـ أيهـــا العـــابرون... أخبرونـــي كيـــف تـــركتم هـــذه الأرض تناضـــل لوحـــدها؟ كيـــف تـــركتم بحرهـــا وأنهارهـــا وغاباتهـــا وياســـمينها تنـــزف لوحـــدها؟ دون أن يـــرفّ لكـــم جفن، دون أن ينبض قلبكم لمرأى وداعها.

رأيــتم نزيــف جــراحكم وقــد التحمــت بنزيــف جــراح وطنكم.

أمــا آن أن تضــمّوه قلــيلاً؟ تبكــون فـــي أحضــانه؟ ترســمون شمســـه وفجــره؟ تــداعبون عصــافيره فيــداعبكم نســيمه! عــودوا إليــه لــن تجــدوا قلبــاً حنونــاً دافئــاً فـــي غربة لا وطن فيها.

....

جلسوا في الجبال ستّ ساعات، لا تزيد ولا تنقص دقيقة واحدة. ستّ ساعات في جوع وعطش وتعب وصمت متكامل.

بدأت الاشتباكات على الحدود وكانت المعركة حامية الوطيس، وكأنها تمثّل أمامهم، أو كانوا في وسطها. توتّرت المجموعة حيث ازداد بكاء الأطفال. وتشاجروا مع (الدلّيلة) لم يكن أمامه سوى تهدّئة روعهم وإقناعهم بالسير قليلاً للوصول إلى السيّارة التي تنتظرهم، لم يكن لهم حلّ آخر سوى الموافقة وإلا ظلوا في أماكنهم ولائم دسمة للخنازير البريّة.

هبوا واقفين وساروا مع (الدلّيلة) وتحمّس شاب من ضمنهم ليساعد ياسمين في أطفالها وحقائبها. ولولاه لغرقت هي وأطفالها في الطين بسبب

المستنقعات ا و ناهيك عن ذلك وعورة الطريق حيث المشي عليه أشبه بالسير في وادي مستنقعات وبحيرات وعرة وجبال زلقة.

وصلت السيّارة أخيراً وصعدوا الواحد تلو الآخر، أمسكت نورة بثوب ياسمين كي لا تضيع عنها. كطفلة تمسك بثوب أمّها حين تكون خجلة أمام حشد من الناس. وضعوهم في تلك السيّارة كالأغنام ومنعوهم من التحدّث حتّى همساً. كي لا يفتضح أمرهم. هم الآن ر يسيرون وسط الخطر، وسيّارات الجيش التركي تجول المنطقة بأسرها بحثاً عن مهاجرين غير شرعيين لإعادتهم إلى موطنهم الأصلي.

وصلت السيّارة إلى مزرعة كبيرة بداخلها حظيرة فارغة مهجورة. تعاقبت عليها منذ زمن حيوانات

مختلفة، وجاء دورهم ليجلسوا فيها، كان عليهم البقاء فيها ليلة واحدة فقط لتهدأ دوريّات الجيش في الخارج، وبعدها يرحل كل شخص إلى وجهته المحددة. منهم من كان وجهته تركيّا فقط لأنها الأقرب إلى الوطن، وباستطاعتهم شمّ عبق ياسمين الوطن عند حاجتهم لجرعة أوكسجين. ومنهم من كان طموحه أكبر من ذلك بكثير. أراد الرحيل إلى أبعد نقطة فلا يسمع دويّ الصواريخ الضخمة بعد ذلك. منعوهم من إنارة الضوء، كي لا يعرف أحد في الخارج بوجود أناس في تلك الحظيرة.

كان لزاماً عليهم تبديل ملابسهم. وخلع الملابس المليئة بالطين والدرن. بدل الرجال ملابسهم بكل بساطة ويسر. ولكن شقّ ذلك على النساء. كيف

يفعلوهــا والرجــال تملــئ المكــان؟ مــا كــان مــنهم إلّا أن لبســوا ثيــابهم النظيفــة فــوق الوســخة. وحــين وصــولهم إلــى مكــانٍ آمــن يخلعــوا ثيــابهم الوســخة ويرموهــا فــي أوّل حاوية قمامة تصادفهم.

ودّعــوا ســوريا وشــهر أذار "مــارس" واســتقبلتهم تركيّــا وشــهر نيســان" ابريــل" ببــرده. لــم تكــن عقــارب ابريــل رحيمــة بهــم وخاصــة أن الأرض لــم يكــن عليهــا أيّ ســجادة أو حتّــى حصــير مــن القــش. فوضــعوا حقائبهم وجلسوا عليها. منتظرين ساعة الانطلاق.

خشــيت نــورة أن يعــاود الحــرس الإمســاك بهــا، وكــلّ تفكيرهــا كــان منصــبّ علــى ذلــك.، لكــن بفضــل الله تعــالى مرّت تلك الليلة بسلام وأمان.

في الخامسة صباحاً أيقظوهم كون حركة الجنود قد خفّت وتضاءلت وبإمكانهم الهرب إلى أيّ مكان يرغبون. قادوهم إلى سيّارة أخذتهم بدورها إلى موقف بلدة تركية تدعى "أنطاكية"، ولكن في الطريق إلى هناك، حدثَ حدثٌ غير متوقّع فقد شكّ بأمرهم زمرة من الجنود وتبعوهم، فبدأت عملية مطاردة كما في الأفلام لم تنته إلّا بعد دخول سيّارتهم إلى موقف الحافلات. كانت القوانين تقتضي أن تكفّ عملية المطاردة إذا دخلت السيارة المطاردة موقف الحافلات كي لا تقوم سيّارة الشرطة بترويع المواطنين عن غير قصد منها. هذه القوانين جاءت من مصلحة المهاجرين غير الشرعيين.

أخـذوا مـنهم أجـرة ضـخمة لوصـولهم إلـى أزميـر عبـر الحافلـة الكبيـرة رغـم أنّهـا كانـت لا تسـاوي سـوى بضـعة قـروش، إلّا أنهـم كـانوا مجبـرين بسـبب التهديـد الـذي كـانوا يسـمعونه دائمـاً. إمـا الـدفع وإمـا إبـلاغ الشرطة عنهم.

ركبـوا الحافلـة واتجهـت بهـم إلـى أزميـر. داعبـتهم شـمس أبريـل وابتسـمت لهـم مـن خلـف نوافـذ الحافلـة فنـاموا علـى دفئهـا. شـاعرين بـدفء لـم يشـعروا بـه منـذ زمـن. نـاموا وأحلامهـم تحـوم حـول رأسـهم جـراحهم تقفـز من القلب لتخبّئها الأحلام في قاع الذاكرة.

سـيمرّ عـام، عامـان، ربمـا أعـوام... وسـيبقى مـا صـادفهم محفـوراً فـي ذاكـرتهم ، لـن تمحـى هـذه الصـورة

إطلاقاً . ستبقى حيّة شاهدة على ما مرّوا به في دروبٍ موحلة مجهولة المعالم.

نزلت هي وياسمين من الحافلة بعد قضاء سبعة عشر ساعة. وصلوا أخيراً إلى وجهة أرادوها. لكن غاب عن ذهنهم أنّهم غرباء في منطقة لم يعرفوها من قبل، فلم يعرفوا إلى أين يتوجّهون، وماذا يفعلون؟ وأين يتجمّعون؟ ومن يسألون؟

امرأتان غريبتان في بلد غريب، بلد لا يفهم لغتهم؛ ولا يفهم ظروفهم، ولكنّهم ساروا خلف أناسٍ عرفوهم من لهجتهم العربيّة. هناك على شاطئ بحر ايجه كان المهرّب بانتظار أعداد كبيرة من المهاجرين ليشبع نهمه للمال. وليشبع باطن البحر بالأطفال والنساء.

لم يقبل المهرّب بصعودهم فوراً إلى القارب المطاطي، بعثهم مع مساعده ليبيتوا ليلة واحدة في غرفة بفندق صغير. استحمّوا وأبدلوا ثيابهم الوسخة بثياب جديدة. وابتاعوا بعض الثياب النظيفة، جلست نورة تضحك وهي تداعب شهد. لأنّها وصلت إلى مرحلة جديدة مرحلة لا جبال فيها، لا نباتات شوكية، لا أراضٍ زلقة، ولكن فيها بحر صغير عميق، لا ينجو منه إلّا من كتب له الله حياة جديدة.

بدأ الفصل الثاني من الرواية... الفصل الأكثر رعباً الذي يبدو قد غاب عن ذهن نورة، بدأ فصل الموت البطيء، الغرق في بحر ايجه...

هنا بدأت حكاية جديدة من حكايات الهروب ـــ بحر ايجه ـــ ومن منّا لا يعرف هذا البحر، الصغير

فــي مســاحته، العميــق فــي مياهــه، حيــث أُطلــق عليــه بحـر المـوت، لشـدّة مـا غـص باطنـه بـآلاف المهـاجرين. وظـل يطالـب بالمزيـد فـي كـلّ يـوم، حـاولوا الوصـول إلـى بـرّ الأمـان، فخبّـأهم فـي بطنـه لـيلفظهم إلـى شـطّ روي بــدموع الأمهــات الثكــالى والأطفــال اليتــامى والزوجــات الأرامل.

بحـر ايجـه هـو البحـر الفاصـل بـين تركيّـا واليونـان ومــا هــو إلّا فــرع مــن فــروع البحــر الأبــيض المتوسّــط العملاق.

ومــع أن النــاس لــم يغــب عنهــا إحصــائيات الغــرق فــي هــذا البحــر إلّا أنهــا كانــت تركــب الــزوارق التــي لــم تهـدأ يومـاً للوصـول إلـى مبتغاهـا. علـيهم أن يقطعـوا

بحـــراً لا أمـــان فيـــه مطلقـــاً لوصـــولهم إلـــى بـــرّ الأمـــان.

أليس هذا هو الجنون بعينه!

ابتاعـت نـورة وياسـمين قمـيص النجـاة كـان لونــه أرجــواني ليقــيهم الغــرق. فــي حــال غــرق زورقهــم، وجهــزوا أنفســهم لكافـــة الاحتمـــالات الممكنـــة طغــت الأفكـــار الســـلبية وقتلـــت كـــل الأفكـــار الإيجابيـــة، فهـــل يمنعون القدر من تحقيق مبتغاه؟

كـــان المهـــرّب قـــد وعـــدهم فـــي رحلـــة بحريّـــة ســـهلة وســـريعة. تقـــارب الســـاعة والنصـــف فقـــط، فـــي زورق مطــاطي صــغير طولــه تســع أمتــار، حُشــر بداخلــه حــوالي الخمســـون شـــخص وافـــق الجميـــع علـــى ذلـــك ولـــم يعترضوا البتّة.

في التاسعة ليلاً أخذوهم في سيّارات مغلقة كما هو الحال في طرق التهريب جميعها. كالأنعام تماماً حملوهم، وعوملوا معاملة العبيد ولأوّل مرّة يتجرّعوا كأس العبودية ويذيقون حنظله.

أُغلقت السيّارات بالكامل كي لا ينتبه لوجودهم أحد. وكأنّها عمليّة تهريب سريّة لأموال طائلة، كانت بالفعل عمليّة تهريب ولكن لبشرٍ من لحم ودم للأسف لم يكونوا أموالاً. كانت عملية لتهريب نفوساً رخيصة لا تهمّ أحد.

وصلوا إلى شاطئ مدينة أزمير، وترجّلوا من السيّارات. فرأوا العجب هناك على شاطئ بحر ايجه عصابات مسلّحة أشبه بالمافيا. أعدادهم كبيرة ويتجوّلون في المكان وكأن أزمير كُتبت لهم.

هـم أنفسـهم المهرّبـون... ولكـن لمـاذا يلبسـون هـذا الـزيّ الغريـب، وكـأنهم ذاهبـون إلـى حـربٍ قـذرة كقلـوبهم خاصـة وذاك السـلاح قـد جلـس علـى خصرهم فـي مكانـه المعتـاد يلمـع فـي نـور الشـمس، وكأنـه يحـذّر الجميـع منـه ومـن صـاحبه. ألـم أقـل أنهـم مافيـا؟ ذاك اللقـب هـو الأنسب لهم.

خافــت نــورة واحتضــنت بقــوّة رضــيعتها شــهد ذات الثمـــان أشـــهر. وكأنّهـــا تتمنـــى أن تختـــرق جســـدها لتعيش بقلبها.

لـم يصدق المهرّب معهـم، أو كمـا قلنـا مـن قبـل ـــــ رئـيس المافيـا ـــــ كـان الـزورق المطّـاطي صـغير، طولـه ستّ أمتـارٍ فقـط. وسـيركب فيـه خمـس وأربعـون شـخص و لا مجـال للاعتـراض سـتعتلي الـزورق أعجبـك الأمـر

أم لـم يعجبـك. شـئت أم أبيـت. إن احتججـت علـى ذلـك ورفضـت القفـز إلـى الـزورق سـتكون أنـت هـدف لتلـك الرصاصـة المتوضّـعة فـي مخـزن السـلاح الجـالس علـى خصـر سـيّده. وسـيتركونك وليمـة دسـمة لنـوارس البحـر تـنهش منـك إلـى أن يمتلـئ بطنهـا وتتـرك البـاقي للـذئاب والكـلاب. أو يرمونـك فـي البحـر لتكـون عشـاء جـاهزاً لسـمك القـرش. إذا لا سـبيل للهـرب ،لا سـبيل للـرفض مطلقاً.

كـانوا عصـابات كبيـرة ولكـلّ عصـابة شـاطئ تحكمـه. تجّـار أعضـاء بمعنـى الكلمـة لصـوص تسـرق الأجساد كما تشاء هي وترغب.

انقسـمت العصـابات فـي مدينـة أزميـر التركيّـة إلـى قسمين:

القسم الأوّل منها: هو القسم المتواصل مع الأشخاص الذين يراد تهريبهم إلى اليونان ويوصلهم إلى الشاطئ هناك بعد أن يعلّم أحد الركّاب قيادة الزورق، ويرسم له الطريق الصحيح ومن ثم ينسحب بعد أن يضع في حجره النقود كاملة.

والقسم الثاني منها: هو القسم الذي يأخذهم إلى مكانٍ آخر في باطن الأرض أكثر ظالمتً من قلوبهم السوداء، وهناك غرف عمليات تعمل ليل نهار. تسحب الجسد عن صاحبه، وتقتطع منه ما تراه ذا فائدة مستقبلية، تدرّ عليهم الأرباح الوفيرة.

فالمهاجرون إن كان الحظ حليفهم وقعوا بأيدي القسم الأول نجوا. وإن كانوا ممن تجري رياحهم

بعكس سفنهم وقعوا بأيدي القسم الثاني أيادٍ قذرة، لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً.

وقف المهرّب العملاق بعد أن انتهى من تدريب شابٍ من الشبان على قيادة الزورق. رسم له طريقه حيث النور الأزرق والذي يشعّ من الجزيرة اليونانيّة.

مشى الزورق بطيئاً في البداية وكأنه لا يعرف إلى أين يتّجه وهو يسيرفي عرض البحر ؟ كان يمضي ويشقّ أمواج البحر من جانبيه. ولكن هناك مشكلة ليست بالهيّنة. كان الزورق مصابٌ بالإنحراف. فهو لا يسير إلى الأمام باتجاهه الصحيح. بل يسير إلى الأمام خطوة ومن ثم ينحرف يميناً. وكأنّه شقّ عليه أمر رحيلهم إلى اليونان. أراد أخذهم إلى وجهة أخرى. أكان المهرّب على علم بعطل

هذا الزورق الغبي وأراد استغلاله إلى آخر نفس فيه؟ حتّى يصيح صيحة نهائية وتقتطع أشلاءه عن بعضها، أم لم يكن على علم بذلك؟ ولكن هذا ما كان ليصدّقه أحد بتاتاً.

هكذا بدأت رحلتهم المجنونة البحر كان صديقاً لهم أكثر مما كان صديقاً لغيرهم، كان والدهم الحنون أكثر من تلك العصابات المسلّحة التمعت مياهه بنور الشمس منحته ألوان الطيف جميعها، كانت رحيمة عليهم تلك المياه.

وجاء ضباب من خلف الجبال التفّ حولهم ليحميهم من خفر السواحل التركيّة، وكأنّ هناك قوّة إلهيّة تحميهم من قسوة البشر، ولكنّ الضباب بدل أن يحميهم أعاق حركتهم فتاهوا في البحر يبحثون عن

الجزيــرة اليونانيّــة المضــاءة. وصــلوها بعــد جهــد شــاق فمــا كانــت ســوى جزيــرة تركيّــة قابعــة ف وســط البحــر. ومــازالوا فــي الميــاه الإقليميــة التركيّــة ســبع ســاعات وهــم يدورون في دائرة كبيرة ولم يصلوا إلى هدفهم بعد.

هنــا اشــتغل الــذكاء العقلــي لــدى بعضــهم، وفتحــوا هــواتفهم الذكيّــة، فعّلــوا الموقــع ليــدلّهم علــى الاتجــاه الصــحيح. لكــن الموقــع أبــى أن يعمــل بوجــود الضــيف الثقيل ألا وهو الضباب.

لاحــت لهــم فــي عــرض البحــر بــاخرة كبيــرة الحجــم، بــدا القــارب كــالقزم أمامهــا، بــل بــدا أصــغر بكثيــر، كخــرم إبرة أمامها.

هربــوا منهــا باتجــاهٍ آخــر كــي لا تــراهم. خــاف الجميـع أن تغـرقهم فربّمـا تكـون سـفينة لتجـارة الأعضـاء الموت صديقهم أينما حلّوا وارتحلوا.

كـان الجميـع ينـام فـوق بعضـهم مـن ضـيق المكـان، ومــع ذلــك قــد تصــادفك نفــوس تعــجّ بغــرور قاتــل.،وإن كانــت رحلتهــا مــن أولهــا إلــى آخرهــا ذل فــلا تتوقــف عــن التعجرف.

صــاحت امــرأة بياســمين أن تبتعــد عنهــا مســافة لا بــأس بهــا حيــث نــام أطفــال هــذه الأخيــرة علــى قــدمي المــرأة. التفتــت ياســمين يمنــة ويســرة، فلــم تجــد مكــان للتحــرّك قيــد أنملــة. فمــا عســاها تفعــل فــي حالــة كهــذه؟ اعتــذرت للمــرأة بــأدب وأخبرتهــا بضــرورة تحمّلهــا قلــيلاً ريثمــا يصــلوا إلــى بــرّ الأمــان. ولكــن المــرأة لــم يعجبهــا

ذلك بل صاحت في وجهها تأمرها بالابتعاد، لم تكتمل الحكاية هنا، فما كان من زوج المرأة إلا أن فزع لزوجته وهبّ واقفاً كالوحش. مشيراً بسبابته إلى ياسمين، مهدّداً إياها إن لم تبتعد هي وصغارها سيحملهم ويرميهم في عرض البحر في وضعٍ كهذا لا مجال للخوف كي لا يتكبر عدوك، لا مجال للبكاء أبداً. إن لمح الخوف في عينيها فربّما نفّذ تهديده خافت نورة كثيراً وتقوقعت على ذاتها. لكن ياسمين قد أضحت في موقع الحدث دون سبب يذكر، تحوّلت إلى لبؤة شرسة. دافعت عن صغارها وصاحت في وجهه غير مبالية بالنتائج. وهددته إن طالت يده إلى طفلٍ من أطفالها، سترميه وزوجته في البحر العميق. هبّ لنجدتها جميع من في القارب من رجالٍ ونساء.

فخـرس الرجـل وجلـس بجانـب زوجتـه، ابتلعـا غيظهمـا ساكتين لا يلويان على شيء.

فـي موقـف كهـذا والخطـر يحـيط بهـم مـن كـلّ جانـب. بـدل مـن أن يتكـاتفوا ويتسـاندوا، هـا هـم يتشـاجرون لأتفـه الأسـباب ويزرعـون الكـره فـي نفـوس بعضـهم. فكيـف سـينجيهم المـوت وهـم يتمنّـون المـوت لبعضـهم بسـبب كـرهٍ مصـطنع؟ لمـاذا لا يعيشـون لحظـات الحـبّ والأخـوّة مـع بعضـهم؟ علـى الأقـل ريثمـا تنتهـي أزمتهم ويصل جميعهم إلى درب الأمان.

وصـلوا قرابـة الشـاطئ اليونـاني أخيـراً ورأوا مـا لا يرغبـون برؤيتـه. حيـث كانـت هنـاك عشـرات الجثـث تطفـوا علـى سـطح المـاء. والرجـال تصـرخ وتسـتنجد وتبحـث فـي جميـع الجهـات عـن أطفـالٍ كـانوا قبـل قليـلٍ

فــي أحضــانهم. وســرقهم المــوت مــن أحضــانٍ ربمــا هــو أرحم منها.

مـــا فائـــدة أوروبّـــا الآن بعـــد أن غيّـــب المـــوت أطفـالهم. وسـرق مـنهم حيـاتهم الجميلـة، ولـم يتـرك لهـم ســوى ذكريــات لطالمــا تمنــوّا أن تبقــى مــع أصــحابها بجـوارهم. رحـل الأصـحاب وبقيـت الـذكريات فـي الأذهـان تشـعّ حفـروا القبـور لبعضـهم. والـبعض الآخـر كـان قبـره البحــر الصــغير، تركــوهم بعــد أن صــلّوا علــيهم وبكــوهم طـالبين مـنهم العفـو والمغفـرة، ورحلـوا إلـى أرضٍ حلمـوا بهـا مـراراً، رحلوهـا بعـد أن تركـوا جـزءاً كبيـراً مـنهم فـي أرضٍ غريبــة. ربّمــا لــن تســعفهم الأيــام لزيــارة قبــورهم وقراءة الفاتحة عليهم.

اقترب الموت منهم، من نورة ومن معها، ألقى السلام عليهم ورحل إلى قارب آخر. ليعيش فيه بضع دقائق.

ربّما الموت ينتظرهم في بقعة أخرى من الأرض، في مكانٍ أخطر من هذا المكان، طريق الهروب مازال طويلاً وشاقاً وقاسياً على الجميع. فهل سيتركهم الموت وشأنهم؟ أم أنّه سيرحّب بهم في مكانٍ آخر.

كان الحظ حليفهم حيث وصلوا إلى الجزر اليونانية دون أن يلتقطهم خفر السواحل أو يلتقطهم الموت القابع لهم تحت الأمواج.

لم يلتقطهم خفر السواحل التركية بسبب الضباب الكثيف، فلو رآهم لأعادهم إلى تركيّا خائبي الآمال فأحياناً ينطلق المهاجر عبر البحر في رحلاتٍ كثيرة

محفوفــة بالمخــاطر، فيــربح واحــدة منهــا وهــي الأخيــرة، كمـا حـدث لنـورة فـي مدينـة ادلـب السـوريّة، ولكنـه يصـل إلــى اليونــان بســلام دون أمــان. لأنّ الأمــان تركــوه فــي الــوطن ســاعة مغــادرتهم إيــاه. وحــين شــيّعهم بنظراتــه حزن الوطن عليهم.

المـوت لـم يبـتلعهم بـل ابتلـع غيـرهم فكانـت الأحـزان واحــدة والمصــاب واحــد. قصــة الحــزن هــذه كتبهــا كــلّ سـوريّ سـواء خـرج مـن أرضـه أم بقـي فيـه كتبهـا بدمعـه ودمائـــه وتعبـــه وشـــقائه حكايـــة الحـــرب هـــي واحـــدة. شملت الكل أينما حلّ وارتحل.

فـــي الســـاعة السادســـة صـــباحاً وصـــلوا (جزيـــرة متيلينـــي) فـــي اليونـــان. جلســوا علــى شــاطئها يريحــون أجسـادهم مـن جلوسـهم الطويـل فـي الـزورق الـذي تركـوه

رزق وفير للصيّادين اليونانيين. استقبلهم الصيادون اليونانيّون وأشاروا لهم بأيديهم أن يتبعوهم ويمشوا خلفهم. وكانت غاية الصيادين أن يأخذوا الزورق لهم كغنيمة.

نزل الجميع قبل الشاطئ الصخري حيث يبعد أمتار عنه، نزلوا في البحر البارد وساروا باتجاه الصخور.

نزلوه وارتموا على شواطئه، تحييهم الشمس بنورها التي أطلّت أخيرا عليهم لتفرح فرحة النجاح معهم، لتبكي معهم غربة بدأت للتو وستبقى للأبد، غربة كُتبت لهم وكتبوها هم برحلاتٍ صعبة وشاقّة لم يكن معهم أحد ولكنهم حسدوهم على أمانهم هناك،

نظـروا إلــى البحــر الكبيــر وعيــونهم تشــكر خــالقهم علــى نجاتهم منه.

انتهــت المرحلــة الأســوأ مــن مراحــل الهــروب لتبــدأ رحلة الهروب البري. عبر اليونان.

انتهـــت رحلـــتهم عبـــر الجبـــال القاســـية، وانتهـــت رحلتهم عبر البحر الغاضب، لتبدأ رحلتهم البريّة.

فماذا تخبّئ لهم دروب اليونان؟

* * * * *

لأنني لاجئة

ــ ٥ ــ

بــدأت المســافة تكبــر والــوطن يصــغر بعيــونهم والأمــل بمســتقبل آمــن يرتســم أمــامهم ربيعــاً لا يعقبــه شتاء .

الأمــل فــي عــالم حلمــوا بــه ورســموه وهــم نــائمون على وسادة بالية في قبو بناء بالكاد يسعهم.

لم تكن اليونان سيئة عليهم كسابقتيها، كانت رحيمة بهم ولم تقهرهم. أحسّت بهم وبآلامهم.

حين وصلوا إلى شواطئها سالمين من بحر ايجه. قادهم الصيّادون إلى حرس الحدود، ثمّ قادهم هؤلاء الآخرون إلى خيم أعدّت لأجل راحتهم. عائلتان في كلّ خيمة. وإن كان العدد كبير تتزايد العائلات في الخيم.

من حسن حظّ نورة أن جاءت هي وياسمين في خيمة واحدة بسبب تشبّث نورة بياسمين فاعتقدوا أنهم عائلة واحدة. وكانت نصيبهم خيمة صغيرة لا بأس بذلك فهي تفي بالغرض. لاسيما أنهم أحضروا لهم ملابس جديدة فكان لزاماً عليهم تبديل ثيابهم. والراحة والاستلقاء قليلاً ليستمرّوا في رحلة بدؤوها

وما كانت تنتهي إلى الآن. وزّعوا عليهم حليب الأطفال وبعض الطعام، ومنحوا الصغار بعض الألعاب.

لأوّل مرّة منذ مغادرتهم حدود دمشق يشعرون أنّهم بشرٌ من لحم ودم. هنا في هذه البقعة الصغيرة وجدوا قلوباً تخفق لأجلهم.، وعيوناً تنظر إليهم بحبّ وحنان، وجدوا الأيادي مدّت إليهم تحاول نزع فتيل الحرب عنهم.

وجدوا متسع من الأمل في الحياة هناك، أمل في المضي قدماً دون أيّ أخطار تعترضهم.

في اليوم التالي أعطوهم الإقامة (الخارطية) هكذا كانوا يطلقون عليها. وهذه تخوّلهم التنقل في البلاد كما يحلو لهم. دون أن يمنعهم أحد بذلك

باستطاعتهم الآن الهروب باتجاه الشمال، إلى مقدونيا وجهتهم الجديدة.

اجتمعوا مجموعة صغيرة مكوّنة من نورة وياسمين وأطفالها وامرأتين وستّ رجال. ركبوا في الباخرة الكبيرة منطلقين إلى أثينا. وهناك لاح لهم بحر ايجه بهدوئه وطيبته، وكأنّه طفلٌ صغير جالس بجانب والدته بأدب، وكأنّه ليس هو القاتل والذي يخفي في باطنه مئات الجثث، بالإضافة للجثث التي لفظها، رافضٌ تخبئتها في بطنه أسوة بمثيلاتها.

وصلوا أثينا وتوجّهوا عبر القطار إلى سالونيك القابعة على الحدود المقدونيّة. ومنها ستبدأ مرحلتهم الجديدة.

لأنني لاجئة

جلسوا أمام فندق كبير في سالونيك، ينتظرون حلول الليل لاقتحام الأسلاك الشائكة اللعينة. الليل هو صديقهم في طرق التهريب كافّة، وهو المتواطئ معهم في كلّ رحلاتهم لحين وصولهم إلى الهدف المنشود، أمّا تلك الأسلاك الشائكة اللعينة كانت لهم بالمرصاد دوماً تعيق تقدّمهم، وتشلّ حركتهم.

أخذ منهم التعب والإرهاق ما أخذ، واستولى عليهم القلق والخوف من القادم الغامض، من مستقبل قريب هو بالنسبة لهم مجهول ما فيه، ولا يدرون ما يخبّئ لهم من مفاجآت.

جلست شهد على الأرض تلعب بالحجارة وترميها أمامها بدأت بالكلام وإن كان كلامٌ مبهمٌ، لا يفهم منه سوى كلمة واحدة (ماما) نسيت في ثورة هروبها تلك

مالـك، ونسـيت أن تعلّـم صـغيرتها النطـق بــ (بابـا) ولكـن حــين تصــل ســتعلّمها النطــق بـــه مــراراً. وحــين تكبــر ســتخبرها عنـــه كــلّ شـــيء. ســتكلمها عــن أبٍ حنــون أحبّهـا حبّـاً جمـاً ولكـن تلـك القذيفـة اللعينـة حالـت بينهمـا فابتعد عنها شوطاً لتبتعد عنه أشواطاً.

هـو اختــار وطنــه والمـوت والبقـاء فيــه. وكانــت نــورة علــى عكســه فــي ذلــك، اختــارت رحلــة هــروبٍ بعيــدة كــلّ البعــد عـــن أزيـــز الرصـــاص وهـــدير الطـــائرات. هربـــت لتحمـــي شـــهد لعلّهـــا تجـــد الأمـــان الضـــائع فـــي وطنهـــا، لكـن لـو كـان مالـك موجـوداً لمـا سـمح لهـا بـالتفكير فـي ذلك، فكيف بتنفيذه كان سيعتبره عاراً بحقّه.

لنعد إلى سالونيك وما تحتويه من مهاجرين غير شرعيين، تخبّأهم تحت ليل سماءها، بعيداً عن وحوش الحدود وقطّاع طرقها.

عند منتصف الليل تجمّع معهم أكثر من مائتي شخص. لم يكن حينها باستطاعتهم اقتحام أسلاك مقدونيا الشائكة. فاقترحوا أن يدخلوها مجموعات صغيرة. المجموعة تلو الأخرى.

كانت مجموعة نورة وياسمين هي المجموعة الثالثة من ضمن المجموعات الكثيرة التي اقتحمت الحدود دون أن يوقفهم أحد. وكأنّ الحدود كانت فارغة لأجلهم فقط. وكأن حرّاسها تلقّوا الأوامر بتسهيل دخول المهاجرين المغلوب على أمرهم.

مقــدونيا ربّمــا ســتكون رحيمــة علــيهم كجارتهــا اليونان. وربّما ستذيقهم ويلات لم يتذوّقوها من قبل.

لنـرى مقـدونيا كيـف سـتتعامل مـع مـن جاءهـا عـابر سبيل فقط وليس مقيم؟

* * * * * *

لأنني لاجئة

ـــ ٦ ـــ

دخلـوا مقـدونيا ولـم يمـنعهم أحـد مـن دخولهـا،ولم يقـف الحـرس بـوجههم ويطلـق صـيحات رعـب يبثّهـا فـي قلـوبهم، بـل سـهّل لهـم كـل الإجـراءات لـدخول أراضـيه طالمـا هـم عـابرون سـبيل لـيس إلا، فلمـا مـنعهم ويغلـق حـدوده فـي وجـوههم. طالمـا أنّهـم يـدركون أنّ هـدفهم أبعد ما يكون عن مقدونيا.

كـان هنـاك مكتـب صـغير يقـوم بتوزيـع (الخارطيّـة) علـى كـل مـن يـدخل أراضـيهم. ممنـوع التحـرّك دون أخـذ واحدة، كتب اسمه عليها.

وبجانب المكتب سكّة حديد وعليها قطار عجوز قديم جدّاً. أكل الدهر عليه وشرب. وكان هذا العجوز جاهزاً لنقلهم إلى حدود صربيا. ومع أنّه قديم إلّا أنه مازال يحمل المسافرين ويأخذهم بعيداً جدّاً حيث تتلقّاهم هناك دولة أخرى. ربّما تفتح ذراعيها لهم. وربّما تدير وجهها عنهم.

حملهم هذا القطار من حدودٍ مقدونيا إلى حدود صربيا، مارٌ بأرض لا تشبه أرضهم بشيء، أرضٌ مرّوا بها كعابري سبيل لا أكثر. شربوا من مائها ، ولم يرتووا. ولن ترويهم مياه الأرض كلّها. وحده بردى من يطفأ ظمأهم، ويرويهم ولو ارتشفوا رشفة قليلة منه فقط. وحدها مياه بردى من تروي القلوب قبل الأجساد.

جـاء دورهـم بعـد انتظـار دام قرابـة السـاعة وأخـذوا (الخارطيّـة). ركبـوا القطـار بسـرعة، لكنّـه كـان مـزدحم جـدّاً، خافـت نـورة علـى شـهد مـن الاختنـاق بسـبب الكـم الهائـل مـن المهـاجرين. وكـأن أهـل سـوريا كلّهـا قـررت الهـروب بعيـداً إلـى حيـث لا أحـد يجـدها. كـان الواقفـون أكثـر مـن الجالسـون. نامـت الأطفـال تحـت المقاعـد. جلسـت النسـوة، وبقـي الرجـال واقفـون، لا مكـان لهـم ليجلسـوا ويرتـاحوا، كـان المشـهد أشـبه بيـوم الحشـر، بيـوم الهـروب مـن مكـان يحتـرق ومـن حـربٍ آثمـة وبركـان ثـائر وزلـزال مـدمّر، مـن وبـاء متفشّـي ومـوت محقق موت سيفاجأ الجميع دون استئذان منهم.

أطلـق القطـار صـفيره وانطلـق فـي دروب مقـدونيا متوجّهـاً إلـى حـدود صـربيا، يرمـي حمولتـه هنـاك. ويعـود

فارغاً ليحمل غيرهم. نامت العجائز والنسوة والأطفال مكوّري الأجساد وبقي الرجال متيقّظون.

سار القطار سريعاً وكأنّه شابٌ في مقتبل العمر وليس عجوز قد تجاوز عمره المئة عام . وبعد مرور الخمس ساعات قضوها في ازدحام خانق في داخله. وصلوا أخيراً إلى وجهتهم الغريبة بالنسبة لهم ووجهته المألوفة بالنسبة إليه فقد اعتاد عليها ردحا من الزمن.

وصلوا إلى الحدود الصربية، وجلسوا كعادتهم التي اعتادوها في العراء ينتظرون حليفهم الليل ليغطّي المساحات الحدودية ويعبروا الحدود، منتصرين في ذلك، فرحين بإنجازاتهم.

باتوا كخفافيش الليل، يسهرون ليلهم ويسيرون فيه وينامون في النهار، أصبحوا أجساد لا أرواح فيها، أجساد شاخت وهم في العشرين من عمرهم.

وحين وصلوا الحدود جاءهم حرسها من كلّ حدب وصوب. لا مكان لهم في صربيا بأعداد هائلة جاؤوا إليهم يمنعوهم من دخول بلادهم.

انضمّت نورة وياسمين إلى المهرّب الأكثر جرأة وأكثرهم معرفة بحرس الحدود. لأنّهما وحيدتان في مكان مجهول، لا رجل معهما يساعدهما في الهرب ولأنّهما غريبتين في أرض لا تفقه لغتهما. كان هذا المهرّب هو العون لهما وهو طوق النجاة الذي بعثه الرب ليساعدهما في عبور الحدود القاسية.

نعـم صـربيا كانــت قاسـية علــيهم، ولــم تكــن لهــم عونــاً أبــداً، حيــث منعــوهم مــن التقــدّم فــأطلقوا النــار فــي الهواء ليخيفوهم. فهربت كلّ مجموعة في اتجاه.

وحــده مهــرّب نــورة وياســمين مــن اختبــأ خلــف الشـجر لـيلمح سـكّة القطـار فارغـة مـن أي جنـدي فيهـا فـأمر مجموعتــه التــي لــم تكــن صــغيرة بــالركض عليهــا بأسرع ما يمكننهم وبكل طاقتهم.

* * ** * *

لأنني لاجئة

— ٧ —

خمسُ ساعات من المشي على سكّة القطار الحديديّة، كانت قاسية على أقدامهم. مليئة بالحصى الصغيرة وكأنّها قطع من الزجاج المتناثرة تخترق أحذيتهم لتدمي أقدامهم. اتحد الحصى بأجسادهم وزاد من آلامهم ومن عذابهم اصطفاف الشجيرات الشوكية على جانبي السكّة.

وزد على ذلك أنّ السكّة لم تكن مهجورة أبداً. بل هناك قطارات تمرّ في موعدها المعتاد صباحاً ومساءاً لها موعدُ لن تخلفه بتاتاً. وإن جاءت في موعدها المعتاد ستجعل الجميع لحماً مفروماً تحت عجلاتها.

عـاد شـبح المـوت إلـيهم ليجـثم أمـامهم . ويراقـب مـن سيكون وليمته الأولى.

مـن كـان أرحـم مـن الجميـع فـي هـذه الحالـة القاسـية؟؟ الحصـى الصـغير... الشـجيرات الشـوكيّة... قطـار المـوت القـادم فـي موعـده، وموعـده مجهـول بالنسـبة لهـم. أم عصـا المهـرّب والـذي كـان يضـرب كـلّ مـن يتلكّـأ عـن المشـي؟ لـم يـراع حرمـة النسـاء ولا ضـعف الأطفـال. وكـأنّهم عبيـد يعملـون تحـت جناحـه وهو سيّدهم.

كـان المـوت علـيهم أرحـم ممـا لاقـوه هنـاك، حيـث بـدا الطريـق بدايـة ضـاعت نهايتـه، أو لـم توجـد لـه نهايـة حتّـى البدايـة تاهـت خلفهـم ومحاهـا الماضـي ولـم يعـد لوجودهـا مكـان ولا زمـان. كـان الـركض هـو

الأصعب على تلك الحصى القاسية، أشبه بالمرور على حجارة خلقت من جهنّم، ولكن ما باليد حيلة الخوف من الإهانة والشتم والضرب بالعصا كان يحثّهم على الركض دون الشعور بأقدامهم المغطّاة بالدماء.

لاحت لهم قرية صغيرة، لم يدخلوها لأن الأوامر تقتضي الوصول إلى ثالث قرية. فخلّفوها وراءهم واستمرّوا بالمشي وتركوا القرية الثانية خلفهم أيضاً، وصلوا القرية الثالثة في الثالثة فجراً.

وهناك كان مكتب صغير ومخيّم فيه بعض الخيم البيضاء، كان فيه حمامات واستراحة متواضعة، كلّ شيء كان مصمم لاستقبال المهاجرين مهما بلغ

عـددهم. سلّمت نـورة وياسـمين أوراقهمـا إلـى الشـرطة الصربية. وجلسا على الرصيف ليستلما (الخارطيّة).

كـان العـدد كبيـر جـدّاً، مـنهم مـن أخـذ إقامتـه واسـتقلّ أوّل قطـار مسـافراً إلـى العاصـمة الصـربية (بلغـراد). ليرتـاحوا فـي فنـادق متوسّـطة التكلفـة أو منخفضـة التكلفـة. فقـط لتحمـيهم مـن بـرد أبريـل الـذي بات لا يطاق.

ولكـن نـورة شـقّ عليهـا أن ترحـل مـع مـن رحلـوا إلـى بلغراد، حيث كانـت نقودهـا علـى وشـك النفـاذ. وهـذا مـا كانـت تخشـاه علـى الـدوام. وكانـت الخـيم ممتلئـة جميعهـا. ولا مكـان لمهـاجر جديـد. فضّـلت المكـوث هـي وياسـمين علـى الرصـيف البـارد، تحـت سـماءٍ غريبـة، لأوّل مـرّة تـرى نجومهـا هـبّ الهـواء منعشـاً فأحسـت

بطعمه في فمها. ولأوّل مرّة تفكّر كيف وصلت إلى هنا؟ وما هي نهاية رحلتها الطويلة والتي أبت أن تنتهي؟

كانت تعيش باللامكان بنقطة لم تفكّر بها يوماً جالسة تتساءل ما الذي دفعها للقدوم إليها. مكان غريب عنها وطئته أقدام كثيرة. مهاجرون كثر مرّوا قبلها ومرّوا معها وسيمر بعدها الآلاف وكل واحد منهم ترك بصمته في ذاك المكان. ترك في ذهنه ذكريات كثيرة عن مكان غاب من كتب التاريخ وحفظته ذاكرتهم التي لن تمحيها كلّ رفاهيّة أوروبّا.

وضعت شهد في حضنها ذات الثمانية شهور وبدأت تلاعبها. فحمدت ربّها لأنّ كل هذه الدروب لن تخترق ذهن شهد لتستقر به، لن تحتفظ ذاكرتها بهذه

الطرق كلّها، ولن يحتفظ ذهنها بحرب طويلة ما كانت لتنتهي.

نامت نورة على رصيف صغير في بلد مجهول محتضنة شهد لتقيها برد أبريل، ونامت ياسمين بجانبها في العراء لم يكن شاهدا عليهم سوى برد أبريل وقسوة هواء صربيا.

يومان وهما في العراء على هذه الحالة المزرية يأكلون وينامون على الرصيف إلى أن أخذوا الإقامات أخيراً وبدأت رحلتهم عبر الحدود إلى هنغاريا.

كانت بطونهن تزقزق من شدّة الجوع ما كان منهما إلّا أن ابتاعتا بضعاً من الشطائر ساندويتش ا"لهمبرغر" وفي دقائق معدودة كانوا قد التهموها عن بكرة أبيها بسبب شدّة الجوع. كانوا جائعين جدّاً وأرادوا

التهام كل ما تقع عليه عيناهم ولو كان أرنبٌ بريّاً... ولكن ما حدث أن تلك الشطائر لم يعجبها أن تبقى في معدة نورة فتقيّأتها على الفور، يبدو أنّها تسممت منها فشحب لونها وصارت تتلوى من وجع بطنها. كانت هناك سيّارة للإسعاف بالقرب منهما وهي تابعة للصليب الأحمر ومكانها هنا بجانب مخيّمات اللاجئين لإسعاف أي شخص يصاب فجأة بحالة مرضية مثلما حدث لنورة. نادتهم ياسمين على الفور، أعطوا نورة الإسعافات اللازمة. وعند الانتهاء أعطتها الممرضة ذات اللباس الأزرق حبّة دواء صغيرة. لم تستطع التقاطها منها. فوقعت على الأرض وتعفّرت بالتراب. ما كان من تلك الممرّضة سوى أن تحمل حبّة الدواء وتمسحا بيدها لتعاود إعطاءها إلى نورة. ولكن نورةرفضتها بشدّة ولحسن حظّها فهي تجيد الإنكليزيّة

جيّـداً وبّختهـا علـى فعلتهـا تلـك. فاعتـذرت الممرضـة وأعطتها حبّة دواء نظيفة.

لأنهـا لاجئـة كـان يجـب عليهـا القبـول بحبّـة الـدواء تلـك المليئـة بـالجراثيم... لأنهـا لاجئـة لا أهميّـة لحياتها.. فما هي إلا رقم يزداد يوماً إثر يوم...

لا يهـم إن كـان ذاك الـدواء منتهـي الصـلاحية أم لا، إذا وقعـت حبـة الـدواء علـى الأرض أم لـم تقـع. مـا قامـت بـه الممرضـة مـا هـو إلّا تأديـة لعملهـا، ولـيس تأديـة لواجبهـا الإنسـاني الـذي يحـتّم عليهـا العمـل فـي منظمة عالمية تعتني باللاجئين.

وصـل القطـار أخيـراً... تركـت نـورة الممرضـة خلفهـا وهرعـت إليـه متناسـية مرضـها وتعبهـا. حملـت ياسـمين شهد وسار أطفالها من خلفها.

لأنني لاجئة

ركبت نورة بمحاذاة النافذة وياسمين بجانبها ومن شدّة تعبها نامت دون أن تشعر بصفير القطار وصوت عجلاته على السكك الحديديّة. غاصت في عوالم كثيرة غريبة عنها، حلمت بأشياء كثيرة، كان أوّلها وآخرها مالك، مالك فقط من كانت تحلم به على الدوام، يحتضنها خائفاً عليها من عالمٍ ليس جديرٍ بها، ولكنّ نورة فاجأت ذاتها قبل أن تفاجئ مالك لو كان موجوداً بأنّها ليست قطّة كما كان يلقّبها، بل لبؤة شرسة، ربّما رحلة لجوئها الطويلة تتطلّب منها أن تكون كذلك فلا مجال للضعف هنا، ولا عيش للقطة في ساحة الكلاب.

لأنني لاجئة

قبـل الحـدود الهنغاريّـة وصـل القطـار وفـتح لهـم أبوابـه لينزلـوا ويكملـوا السـير لوحـدهم، كـان علـيهم المشي قرابة الأربع ساعات ليصلوا.

لـم تكـن هنـا جبـال ليصـعدوها ولا بحـر ليركبـوه ولا سـكّة حديـد يمشـون عليهـا. بـل كـان الوضـع أسـهل وأخطـر. كانـت غابـة كبيـرة، تلفّهـا الأشـجار مـن كـلّ الجوانـب، بـداخلها حيوانـات وحشـرات لـم يروهـا سـوى علـى التلفـاز فـي قنـوات تعـرض الحيـاة البريـة كقنـاة (National Geographic) ومنهـا لـم تعرضـهم هـذه القنـاة ولا غيرهـا وكـان يتوجـب علـيهم اكتشـافها، أو تكتشـفهم هـي فيصـبحون جمـيعهم وليمـة لحيوانـات لا يعرفون اسمها.

طلب منهم مهرّبهم أن يحملوا العصي جميعهم نساء ورجال خشية أن تصادفهم الوحوش البريّة. إن لم تكن الوحوش فقطّاع الطرق، وما أكثرهم في ذلك المكان، كانت تتربّع شرق الغابة بحيرة كبيرة زرقاء، تشعّ مياهها بسبب أشعة الشمس فتصفو مياهها خجلاً، وهناك على غربها شارع عريض واسع.

ومن ذكاء الشرطة الهنغارية وبالتعاون مع الشرطة الصربية أنّها رمت عصي صغيرة وهي عبارة على أغصان أشجار يابسة وعلب معدنية فارغة على طول الغابة وعرضها.. حيث يتسنّى لهم سماع أقدام المهاجرين فيجهّزوا العدّة للنيل منهم وبالتالي منعهم من التوغّل في أراضيهم. وبذلك يحمون بلادهم من الغزو العربي القادم إليهم.

لأنني لاجئة

كـان البعـوض كبيـراً جـداً، بحجـم كـفّ اليـد وكأنّهـا عصــافير علــى مــاذا تتغــذى لتكبــر بهــذا الحجــم؟ وعشـرات كثيـرة هـاجمتهم لـم يتعرّفـوا عليهـا، وكـأنّهم فـي كوكب آخر لا يخصّ كوكبهم الأرضي بشيء.

اســتراحوا أخيــراً وكــان ذلــك قبــل وصــولهم إلــى الحـدود بنصـف سـاعة، ليكملـوا فيمـا بعـد بهمّـة ونشـاطٍ أكبــر. لأن المرحلــة القادمــة تتطلّــب الــركض الســريع والقوة البدنية.

انتهــوا مــن اســتراحتهم وتوجّهــوا غربــاً باتجــاه الشــارع العــريض فصــادفهم مجموعــات كبيــرة. كلّهــا قادمــة لتعبـر تلـك الحـدود انضـموا إلـيهم وتـاهوا بيـنهم. وحـين وصـلوا إلـى الحـدود كانـت الشـرطة تقـف صـفاً طـويلاً بانتظـارهم كانـت لهـم بالمرصـاد. ركضـت الشـرطة

ورائهـم تحـاول الإمسـاك ببعضـهم ونجحـت فـي ذلـك، وهـرب البـاقي باتجـاه الشـارع العـريض، ومـنهم مـن غـاص فـي أعمـاق الغابـة. والـبعض اختبـأ خلـف الأشجار الضخمة.

استراحت نـورة وياسـمين خلـف الشـجرة العجـوز وأرخـوا جـذعيهم عليهـا، وبعـد أن هـدأت الحركـة وشـعروا بالأمـان يلفّهـم نـاموا مـن فـرط التعـب. وكانـت معهـم مجموعـة أخـرى غيـر تلـك التـي كانـت معهـم قبـل أن تباغتهم الشرطة.

مـرّت سـاعات قليلـة وهـم كـذلك إلـى أن اسـتيقظت نـورة علـى حركـة قريبـة منهـا وليسـت ببعيـدة، فتحـت عينيهـا لتـرى عيونـاً واسـعة تحـدّق بهـا، أو ربّمـا تحـدّق بشهد فهي ألذ من أمّها بسبب صغر حجمها.

كان الناتج عن تلك الحركة ضبع صغير، أغرته الرائحة البشرية فخرج في ظلام الليل يبحث عنها، فوجد ولائم كثيرة وليست وليمة واحدة. أطلقت نورة صيحة فزع رجّت لها الغابة كلّها وأيقظت جميع العيون من حولها. نهرها الجميع بالكفّ عن الصراخ، وأبعد الرجال الضبع الصغير عن ساحتهم، فهرب يعرج على قدمه بسبب الحجر الذي رماه به المهرّب. كان يجب عليها أن تصمت وإن التهمها الضبع أو التهم ابنتها لأنها على مقربة من الحدود. بسبب صياحها ستهرع الشرطة الهنغارية إليهم بدل أن يهرعوا هم إليها. خرجوا إلى الشارع الواسع مرّة أخرى ليحاولوا الدخول خلسة إلى هنغاريا، ولكن حرس الحدود كانت متيقّظة مثلهم وجاهزة لاستلامهم،

فأمسكت بهم هذه المرّة، دون أن يفكّر أحد منهم بالهروب المتوقّع.

أجلسوهم على الحصى على ذلك الشارع الكبير، لينتظروا بقيّة المهاجرين.

* * * * * *

لأنني لاجئة

ـــ ٨ ـــ

على الطريـق الواسـع أجلسـوهم منتظـرين الحـافلات لـتقلّهم إلـى المعسـكر، لـم تتـأخّر الحافلـة فـي القـدوم إلـيهم، أقلّـت الجميـع ولـم تسـتثني أحـد مـنهم، عنـد وصـولهم لـم يجـدوا سـوى خيمـة واحـدة ولكنّهـا كبيـرة فهـي تتسـع للمئـات مـنهم. وهـي بمثابـة سـجن مثـل السـجن المتواجـد فـي تركيّـا المخصـص للمهـاجرين الغيـر شرعيين، الداخلين إلى البلاد خلسة.

فـي صـباح اليـوم التـالي أخـذوا الجميـع فـي حـافلات إلـى العاصـمة الهنغاريـة ــ بودابسـت ــ أدخلـوهم مركـز

الشـــرطة وكـــان علـــى الجميـــع أن يبصـــم دلـــيلاً علـــى دخـــولهم هنغاريـــا، ومـــن يـــرفض يســـجن لمـــدّة خمـــس وعشرون يوماً.

بصـــمتا نـــورة وياســـمين ولـــم تباليـــان إن بصـــمتا أم لـــم تبصـــما، طالمـــا وجهتهمـــا الأخيـــرة ألمانيـــا فهنـــاك باســـتطاعتهما كســـر البصـــمة كمـــا هـــو متعـــارف، وقـــدّمت لهـــن الشـــرطة أوراقـــاً ثبوتيـــة مكافئـــة لهمـــا علـــى ســـرعتهما في البصم دون تردد أو رفض.

الآن باســـــتطاعتهن المغـــــادرة متـــــى أرادن، ولكـــــن هنـــاك قبـــل ألمانيـــا النمســـا ويجـــب علـــيهن المـــرور بهـــا. ولكـــــنهن الآن متعبـــــات ويتمنـــــيّن مقعـــــداً واحـــــداً فقـــــط ليريحن جسدهن عليه.

لم يجدن فنادق رخيصة جدا في بودابست، فتوجّهن إلى موقف الحافلات، وهناك جلسن على مقعد خشبي يراقبن المارة، وينسجن أحلام مستقبلهن الجديد.

وبعد مرور الساعات على جلوسهن هناك، جاءهن رجل قد ناهز الخمسين من العمر ملامح وجهه تخبر الجميع أنه جاء من بلاد عربية .

كان هذا المهرّب الذي يقلّ المهاجرين إلى ألمانيا، وكان يبحث عن المهاجرين في مواقف الحافلات والحدائق والفنادق الرخيصة.

اتفق معهن على ساعة الانطلاق والتكلفة. وأخذهما إلى فندق رخيص يعجّ بالمهاجرين غير الشرعيين. وفي كلّ غرفة وضع فيها عائلة كبيرة أو

عائلتين صغيرتين، ولم تكن غرف الفندق صغيرة، بل كانت واسعة ومريحة.

استحمّت نورة وطفلتها أخيراً واستطاعت أن تستحم ياسمين هي وأطفالها الثلاث. وخلعوا كل الأوساخ التي علقت بهما في رحلة لجوؤهم.

نامتا من تعبهما ليستيقظا في الساعة الخامسة على طرقات على الباب عنيفة وبصوت المهرب يناديهما ليستعدّا ويجهزن أنفسهما وأطفالهما.

في الموعد المحدد جاءهن ولم يتخلّف دقيقة واحدة طالما في ذلك مصلحته الاقتصادية.

ركبوا السيّارة وانطلقت مسرعة تشقّ غبار الألم والتعب والقهر.

دخلت النمسا دون أن يوقفها أحد وأكملت سيرها في السرعة ذاتها متوجّهة إلى ألمانيا.

* * * * * *

لأنني لاجئة

ـــ ٩ ـــ

وصـلوا أخيـراً إلـى ألمانيـا، وصـلوها بعـد رحلـة لجـوء طويلــة تخطّــت الشــهرين، قضــوها فــي الجبــال والبحــار والغابات والحيوانات الشرسة.

وصــــلوها منهكـــين، حـــائرين، خـــائفينولكن فـــي النهايـــة وصـــلوا إلـــى هـــدفهم المنشـــود. كـــان آنـــذاك شـــعورهم يجمـــع بـــين الفـــرح والحـــب والخـــوف والأمـــل والألم.

أوصلهم المهرب إلى هدفهم وعاد مسرعاً قبل أن يتمّ الإمساك به، حيث سيكون مصيره في تلك اللحظة السجن لا محالة.

لاحت لهم قرية صغيرة. ولكنّها لم تكن هدفهم، كان هدفهم المدينة الكبيرة. برلين وغيرها. ولكن أهل القرية ما إن رأوهم وأدركوا أنّهم مهاجرين داخلين إلى أراضيهم خلسة حتى سارعوا إلى الاتصال بالشرطة. وما هي إلا دقائق حتى واكبتهم فرقة من الشرطة المسؤولة عن أمور المهاجرين.

قادتهم إلى مستودع كبير كان يُستخدم فيما مضى لمجموعات هائلة من عجلات السيّارات الضخمة. ولكن الحاجة أم الاختراع كما يقولون، فأي

مكان سيسع كل هؤلاء الأشخاص إن لم يكن مكاناً كهذا كبيراً. ليضمّهم جميعهم دون استثناء.

جمعوا أعداد كبيرة من المهاجرين الجدد بداخله وزاد عددهم عن الألف.

أخذوهم إلى غرف مخصصة للتفتيش، غرفة مخصصة للذكور ويقوم بتفتيشهم شرطي. وأخرى مخصصة للإناث وتقوم بتفتيشهم شرطيّة. وبداخل الغرفتين أمروهم بخلع ملابسهم جميعها. عرّوهم بالكامل. لا شيء بات يسترهم. فقط ليتأكّدوا من أن المهاجرين لا يخفون أوراقاً مهمّة بحوزتهم. فيما إذا كان هذا المهاجر قد خبّأ ورقة تثبت أنّه مجرم حرب، ماذا إذا كان قد خبّأها في باطن سرواله الداخلي.

سيكون مصيره الطرد فوراً. لذلك كانت تتم عملية التفتيش هكذا. دون اعتراض من أحد.

ارتدى الجميع ثيابه. ووقفوا في صفٍ طويل ينتظرون القطار المخصص لهم للانطلاق إلى ميونخ. لم يتأخّر عنهم كثيراً، وصل في موعده المحدد ودعا الجميع إلى متنه.

كان الوضع مختلفاً في ميونخ حيث أدخلوهم إلى المخيم، المتعارف عليه بـ (الكامب) وهو عبارة عن بناء كبير كالمدرسة الكبيرة وفيه المئات من الغرف يحتوي أعداداً كبيراً من المهاجرين غير الشرعيين. كل عائلة لها غرفة تخصّها. أمّا الشبان الذين خرجوا لوحدهم دون عائلاتهم. كانوا يجلسونمعاً. كل سبع شبان في غرفة واحدة والأمر كذلك بالنسبة للنساء.

أمّا عن ياسمين ونورة فكانت غرفتهما واحدة وصغيرة وليس معهما أحد.

أسبوع واحد فقط. وثمان ليالي في هذا (الكامب) الضخم. وبعدها أخذوهما إلى منزل كبير بعض الشيء، مؤلّف من طابقين، غرفه كبيرة، ولكن هناك حمام واحد مشترك للجميع وحتّى المطبخ كان مشتركاً. كلّ غرفة فيها ثلاث عائلات.

ودّعت ياسمين نورة بعد أن جاء زوجها وأخذها إلى الدنمارك، ووعدتها بزيارات ستكون متلاحقة. وعادت نورة وحيدة كما بدأت رحلتها وحيدة.

استمر الوضع على ما هو عليه قرابة الستة أشهر ونورة تخشى الاقتراب من أحد. تخشى الدخول إلى عوالم لا ترغبها تخشى الانخراط مع أناس لن

يفهمـوا جرحهـا ووجعهـا. كمـا فهمتـه ياسـمين وداوتـه وحـين غادرتهـا عـاد النزيـف كمـا كـان. ولا أحـد بإمكانـه أن يضمّد الجراح النازفة سوى تراب الوطن.

حصـلت علـى الإقامـة أخيـراً التـي تعطيهـا امتيـازات كثيـرة كلاجئـة وليسـت كمواطنـة، وأهمّهـا اسـتئجار بيـت علـى أن تـدفع الحكومـة الألمانيـة الإيجـار المتّفـق عليـه مع المستأجر.

اسـتأجرت نـورة بيتـاً صـغيراً يخصّـها لوحـدها وعاشـت فيـه وحيـدة. لـيس معهـا أحـد سـوى شـهد وأحزان حملتها من أرض الشام.

* * * * * *

لأنني لاجئة

وقفت أمام الغروب تبكي شامها وياسمينها، تبكي مالكها وإخوتها، تبكي وحدتها وغربتها ولجوئها.

وصلت إلى برّ الأمان كما طلبته وناضلت من أجله ولكنها لم تجد الأمان. وصلت إلى قبلة المهاجرين كما وصفوها. ولكن لم تجد قبلة فيها للصلاة في حناياها. وصلت إلى حيث رغبت وتمنّت ولم تجد سوى وهم خدّاع سراب من طيف فيه ماء.

بات الأمل في العودة مستحيلاً. لا أمل في الرجوع إلى حيث بدأت رحلتها كل الدروب هناك محتها الحروب ولم يعد درباً صالحاً للسير فيه والعودة مجدداً.

لأنني لاجئة

عـادت تتمنّــى العـودة إلــى حضــن الــوطن، عــادت تتمنّــى العـودة إلـى أيّـامٍ كـان أكثـر مـا يؤلمهـا فيهـا إن نظر مالـك إلـى غيرهـا، هـا هـي باتـت تمنّـاه أكثـر مـن أيّ وقـت قـد خـلا، عـادت تتمنـاه ولينظـر إلـى بنـات الكـون كلّــه ويتغـزّل بهــذه وتلــك، علــى أن يبقــى بجانبهــا ولا يرحل إلى حيث تتمناه ولا تصل إليه.

وصـــــلت ألمانيــــا فوصـــــلتها وحيـــــدة، إخوتهــــا خاصــموها لأنهــا خرجــت دون علمهــم ودون إرادتهــم. حزنـت سـورية منهـا لأنهـا تركتهـا جريحـة الفـؤاد تبكـي حربـاً قــد خلقــت بــداخلها دون أن تواســيها أو تســارع لتخفيف جراحها .

سـتمرّ السـنون سـريعة علـى الجميـع، وسُـتمنح لهـا الجنســيّة الألمانيــة مكافئــة لهــا علــى تخطّــي الحــدود

بشـــجاعة. وإن ســـألها أحـــدهم عـــن حـــواري الشـــام وياســمينه المــدلّى مــن فــوق جدرانــه القديمــة. ســتغمض عينيهــا الاثنتــين لتعــيش مــاضٍ لــن يعــود. وحتــى فــي الحلـم لـن يعـود تـاه واسـتقرّ مكانـه درب اللجـوء. سـتفتح عينيهـا لتقـول لهـم بأنّهـا لا تـذكر شـيئاً عـن تلـك الأحيـاء وحتّى عبق ياسمينها اختفى للأبد.

* * * * * *

لأنني لاجئة

كلّ سوري ولد في غربته هناك لن يعرف عن الوطن شيء، لن يعرف ماذا يعني شذا الياسمين لأهل الشام. لن يعرف ماذا تعني رائحة الأرض بعد المطر لكلّ عاشق وعاشقة سارا سوياً في البرامكة والحلبوني والمزّة.

حين تسير في أحياء الشام الضيّقة فتغلق عليك الشام أبوابها السبعة ويستقبلك جدار بُنيَ من آلاف السنين ليودّعك جدار آخر كتب عليه مئة رسالة حبّ موقّعة من مئات الأسماء. تضمّك الجدران إلى قلبها خائفة عليك من قذيفة طائشة لا تعرف الرحمة.

كلّ من ولد في الغربة لا يعرف عن قاسيون شيء وإن سألته عن شموخه، عن وقفته المتعالية حارسٌ للشام. وحدها الشام من تجلس أمامه

بمسجدها الأموي الكبير والذي يتراءى لك من قمم جبال قاسيون جميعها. سيقول لك ذلك العربي المنكّه بنكهة الأوروبي. "كل الجبال تتشابه" ستضع يدك على فمه كي لا يعيدها مرّة أخرى وستقول له ــ صه.. كم أنت مخطئ في تحليلك هذا ــ فدمشق في قلب قاسيون، وقاسيون هو النسر القابع المدافع عنها دائماً.

ستصدر عنك آهات مؤلمة وستصمت وبعدها سينطلق فمك للحديث عن بردى وإن كانت جفت مياهه وعند الاطلاع عليه وأنت تقف متكئاً على حافة جسر الرئيس، أو واقفاً على جسر فيكتوريا فلا تراه ولن تلمحه، ولكن يبقى في القلب ولن تمحيه الأيام.

أخبـره عـن ثلـج ينـاير وهـو يغطّـي جبـال سـورية، أخبـره عـن أمطـار فبرايـر وهـو يسـقي مزارعهـا. أخبـره الكثيـر الكثيـر. حينهـا سيتمنّى لـو أنّـه سـوري ولـد فيهـا وعـاش علـى أرضـها وشـرب مـن نبـع الفيجـة. سـتغلق فمـه مـرّة أخـرى، وتخبـره ــ لا.. لا يـا صـديقي، لا تقلهـا، أنـت سـوري مـن أصـل عربـي، ولكـن ذاك الطريـق هـو السـبب، البحـر الأخـرق الـذي حمـل والـديك هـو السـبب، الجبـال التـي تسـلقها والـديك هـي السـبب، الغابـات التـي مشـيا فيهـا هـي السـبب، وربّمـا كانـت الحـرب هـي السـبب –

* * * * * *

حينما كنت صغيرة كنت أفكر حينها أنّ الحرب ستكون قصيرة الأمد، شهر وشهرين فقط ليس إلا، والدمار فيها سيكون طفيفاً.

كنت حينها أفكر أن هناك طرفين يتصارعان ليفوز في النهاية الطرف الأقوى، وبعدها ستعود الحياة إلى ما كانت عليه، وربّما ستعود أجمل بالتأكيد. دائماً الحياة بعد الحرب ستكون أشهى بكثير.

ولكن لم أكن أتصوّر أن أعيش أجمل سنين عمري في حرب طالت ولم تنته ، آكل وأشرب وأضحك

وأنجح وأعمل وأعيش مجمل تفاصيل حياتي في حربٍ قذرة.

تبيّن لنا أنّ الحرب ليست لعبة، حرب باردة نعيشها، آلامتنا كثيراً، أماتت بداخلنا كل شيء كان حيّ. أمل وراء أمل، حلم وراء حلم، مستقبل وراء مستقبل، حتّى الحب قتلته وشيّعناه معها.

والآن خائفة مما خاف منه الكثيرون. أخاف أن تنتهي الحرب وأفتش داخل خلايا روحي ولا أجد سوى الوجع، أفتش عن شيء بداخل قلبي يسعدني فلا أجد سوى الدمار التي أحدثته الحرب في قلبي كما أحدثته في قلب المدن، أخاف أن أفتّش فلا ألمح سوى ذكريات الحرب، كلّ لحظة هي خوف وألم وعذاب، أخاف أن أفتّش عن كل شخص فقدته وهيهات أن

يعود، كل شخص أصبح سيئاً لأنه لم يستطع تحمّل قسوة الحرب، أخشى انتهاء الحرب ولا أجد سوى دخان ونيران مشتعلة في كلّ مدينة. أسمع أصوات لأناس ما عادوا هنا وأطفال يلعبون في السماء، وصدى أغانيهم تتردد إلى أذهاننا لتصيبها بالصمم. أخاف أن ألمح ياسمين الشام وقد ذبل كأرواحنا المتعطّشة للحياة.

ابتعدوا عن الوطن كثيراً، وسافروا إلى البعيد، بينهم بحار عميقة وجبال ضخمة. لكن قلوبهم ما زالت متعلّقة بتراب الوطن، ويسكنها إلى الحين دفء الوطن. ما زالت أنظارهم تتعلّق بآخر ساعة غادروهاوعلى حدودها بكوها وهمسوا في أذن ترابها

(سـنعود). هـا هـم ينتظـرون سـاعة انتهـاء الحـرب وساعة العودة إلى حضن سيتلقاهم جميعاً.

ينـامون فيأخـذهم الحنـين إلـى ربـوع الشـام بغوطتيهـا الشـرقيّة والغربيـة، يحملـون جـواز سـفرهم ويضـمونه إلـى صـدرهم لعلّـه يشـعر بثقـل حنيـنهم إلـى وطـنهم ويأخـذهم إليهـا. ويحلمـون برحلـة عبـر الحـدود يـدخلونها بجـواز سـفرهم الجديـد تطـأ أقـدمهم أرض الوطن.

بـأحلامهم سـيدخلونها شـاء مـن شـاء وأبـى مـن أبـى، ولا سـلطان لأحـد علـيهم فـي أحلامهـم تلـك. بـأحلامهم سـيتجوّلون فـي شـوارعها، فـي الصـالحية والشـعلان والحمـرا وركـن الـدين وشـارع بغـداد. وجـواز

سفرهم ما زال نائم في أحضانهم خائفين عليه من الهرب منهم إلى البعيد.

ظنوا بأن الغربة ستكون ملاذهم الآمن ونسوا إن بعض الظن إثم. ظنّوا أنها ستكون أسهل، فقط مجرّد الرحيل من أرضٍ إلى أرضٍ أخرى. ولكن غابت عن أذهانهم أن ليس كل أرض هي أرض وليس كلّ سماء هي سماء. ظنّوا أن هواء الوطن سيصل إلى أنفاسهم ولكنّ هواء تلك الديار ملوّثة بحقد صب عليهم.

اعتقدوا أنهم سيتأقلمون مع مجتمعهم الجديد، يوم، يومان. أسبوع، أسبوعان، شهر، شهران. ولكن عشرات السنين مرّت دون أن يتأقلموا ومازالت عيونهم ترنو إلى الوطن. وبقي القلب وحده يحلم بساعة عودة لا تخلف وعدها. ظنّوا بأن حزن الوطن

ستمحيه الأيّام هناك، حيث اليورو والدولار وينسون كل شيء ونسوا أن بعض الظن إثم.

هربوا من سماء رمادية وهواء مؤكسد مليء بالغازات السامّة ومن حارات مدمّرة، وقلوب تحترق وأجساد تهوى بطلقاتٍ مجهولة. طلقاتٌ ربّما هي نفسها لا تعرف لما انطلقت وما وجهتها المحدّدة. وكالعادة يضل الرصاص طريقه ليخترق جسد آخر. جسدٌ لم تكن هدفه الرصاصة بل كان الهدف شيء أكبر منهم ومن الحرب.

هربوا من مستنقع كاد أن يغرقهم ولكنهم غرقوا في مستنقع الغربة، بدلاً من أن يصمدوا سقطوا جميعاً في حفرة كبيرة تدعى الغربة.

وبدأت المآتم يومياً على مواقع التواصل الاجتماعي شاهدة على عذابات أناس لا حصر لهم. وكلّ منهم له أمنية واحدة لا غير ألا وهي ــ الموت على تراب الوطن ــ .

هناك حيث العجوز تبكي وتشتكي غربتها وفي عنقها علّقت سلسلة لمفتاحين، أحدهما كبيراً وهو مفتاح بيتها في الجولان والثاني صغيراً وهو مفتاح لبيتها في ضاحية صغيرة من ضواحي الشام. كانت نازحة وأضحت لاجئة. أضافت لنزحتها الصغيرة نزحة كبيرة، رفعتها مرتبة جديدة. وكل ما تتمناه آلا تعود إلى الجولان فقط. بل إلى قبر يضمّها تحت تراب الوطن. وإن كان في صحراء البادية ما يهم تلك

العجـوز أن تمتـع ناظريهـا بسـماء الـوطن وترابـه قبـل أن تفاجئها المنيّة.

* * * * *

تمت

٢٠١٨١١١٨

من رحم الألم يولد الإبداع

من رحم الألم يولد الابداع